القسم الثالث

الجنوب العربي

obeikandl.com

obeikandl.com

٨

العَرَبيّة السّعيدة سابقًا

عندما نقترب من الجنوب العربي ، تعود بنا الذاكرة فوراً الى ذاك التقسيم الكلاسيكي القديم المعروف للجزيرة العربية. وإلا كيف يمكن ازاء مرتفعات اليمن الخضراء ، الا نتذكر ما اسماه القدماء العربية السعيدة . واذا أقررنا بهذه السعادة النسبية فان في امكان الجنوب ـ الغربي العربي ان يطالب ايضاً بأن تلصق هذه الصفة فيه ، عندما تقارن بينه وبين باقي الجزيرة العربية .

كانت المملكة اليمنيـــة المتوكلية مع عسير ونجران ، وحضرموت وباقي محمية عدن ، تشكل في الماضي البعيد منطقـــة من جزيرة عُرف عنها انها صحراء اكثر منها مروج خضراء . وفي يومنا هـــذا تطلق صفة « السعيدة » عادة على اليمن وحدها ، اذا انها اغنى الاقاليم واكثرها كثافة من حيث السكان حتى في « العربية السعيدة » القديمة ؛ وفي عام ١٩٣٤ تم تقريباً تقسيم المنطقة وتحديدها الحالي . وفي هـــذا التاريخ ـ كما رأينا ـ استطاع عبد العزيز بن سعود ان يحمل اليمن

على ان تعترف بسيادته على عسير ونجران . كما انتزع الانجليز مستعمرو عدن من الامام اقراراً بقبـــول الاوضاع الراهنـــة على حدوده الجنوبية . ومع ذلك فان الاضطرابات في هذه المنطقة الجنوبية لم تهدأ يوماً .

ترفض السلطات البريطانية ان ترى الاجانب يزورون الاراضي المعدنية. وامام اليمن من جانبه في عزلته فوق جباله الخضراء ، هو اكثر ملوك العالم استبداداً ، وبلده اكثر البلدان انغلاقاً على النفوذ الاجنبي ودسائسه. وعندما حصل الامام يحيى حميد الدين على الاستقلال لبلده عام ١٩١٩ ، على اثر انهيار الامبراطورية العثمانية جعل من الانعزالية في اقصى حدودها، المبدأ الرئيسي الذي يخط عليه سياسته . واما ابنه احمد الذي خلفه عام ١٩٤٨ ، فقد فتح بلاده شيئاً فشيئاً للتكنيك الاجنبي . وارسل ممثلين عن مملكته الى هيئة الامم ، وبعض العواصم الكبرى ، كما قبل ان يتفاوض بشأن امتيازات معدنية ، وتحالف عسكرياً مع مصر والسعودية . وهكذا شيئاً فشيئاً خفّت حدّة الانعزالية وبسبب هذه العزلة لم يتعد عدد غير المسلمين الذين اقامـــوا في اليمن فترة من الوقت ، بعد استقلالها بضع مئات من الزائرين .

واليمن في الواقع مثالٌ للبلد المتخلّف على الرغم من انها غنيـــة بالطاقات . والبلدان العربية الاخرى قد انتقدت نظام الامام السابق الذي يعود الى ما قبل الطوفان . ولكنها لا تستطيع الا ان تعرب نحو هذا البلد شيئاً عن الاحترام والحنان . وذلك لأنه اذا كان للحجاز حق في ان يحمل اسم « ارض الاسلام المقدسة » ، فاليمن وحدها يمكنها ان تفخر بأنها « مهـــد العرب » ومن هذه الزاوية المكتظة بالسكان من الجزيرة العربية انطلقت الموجات البشرية التي وصلت حتى المتوسط الشرقي او ما يسمى بالشرق الادنى – وفي هذه اليمن الكبرى – التي كانت تشمل في القرون الاولى من التاريخ الميلادي ما اسماه لورنس «مصنع العرب» ،

نجد وطن العرب جميعاً . ومع الفتوحات الاسلامية انتشر اليمنيون في حوض المتوسط بأسره . وهكذا من بلاد ما بين النهرين ، من الخليج العربي حتى المغرب او المحيط الاطلسي نعثر على أسر وقبائل عربيـة تفتخر بأصلها القحطاني الجنوبي العربي . وفي هذا المجال ذكر «روبير مونتاني» بالجهود التي بذلها برابرة شمالي افريقيا ليخترعوا شجرة نسب لهم تجعلهم من عرب اليمن الحميريين .

ترى لماذا ترك ، سكان العربية السعيدة ، بلدهم الجميل في الماضي الغابر ؟ ان هذه الظاهرة ، ظاهرة النزوح ما زالت مستمرة حتى أيامنا هذه ، ويقدر عدد اليمنيين الذين يعيشون خارج اليمن بمليون يمني . لا ريب ان الكثافة الزائدة في السكان هي السبب الأول ، اذ ان الارض اليمنية بجبالها الشامخة لا تستطيع ان تنتج ما يعيل كل أبنائها . ولهـذا السبب نجد يمنيين يحملون الجنسية الفرنسية في مدينة جيبوتي بالصومال ؛ وحتى لا نذهب بعيداً ، نكتفي بالقول اننا نجد يمنيين في مرسيليا . واذا عدنـا الى الماضي السحيق نبحث عن سبب الموجات الأولى من النزوح علمنا أن تصدع سد مأرب كان العامل الرئيسي . وسقوطه التام النهائي في القرن السادس الميلادي كما يؤكد عدد من المؤرخين قضى على احدى الحضارات الكبرى التي عرفها العالم .

مملكة سبأ

تحدثنـا ، روايات الجغرافيين اليونانيين التي أكدتها الاكتشافات الاثرية الحديثة أشياء كثيرة تتناول ممالك الجنوب — العربي، الكبرى الزاهرة والمتحضرة منذ خمسة عشر او عشرين قرناً من الميلاد . وأشهرها مملكة سبأ الاسطورية ، التي جاءت ملكتها بنفسها الى اورشليم لتحقق

من قوة سليمان . والازدهار الذي نعم به اهل سبأ يعود خاصة الى تجارة القوافل الرابحة في التوابل والبخور التي احتكروها ، مع العلم بأن تفننهم في الزراعة وتكنيكهم في الري أتاحا لهم ان يطوّروا الزراعة الى اقصى حد عُرف في ذلك الزمان . وعبقريتهم الهندسية في فن البناء تجلّت في انقاض مأرب العظيمة و « شبوه » اللتين قُدّر لهما ان تكونا عاصمة المملكة على التوالي .

وفي عصر سبأ ذاته ولكن لفترة أقصر ، امتدت مملكة « كتابان » في اقصى الجنوب الغربي ومملكة حضرموت ، حتى شمل نفوذهما حدود محمية عدن الحالية . وفي الشمال عاصرت المملكة اليمنية مملكة سبأ ما بين سنة ١٢٠٠ و ٦٥٠ قبل الميلاد .

ليس لدينا اية معلومات كافية مفصلة عن ممالك الجنوب العربي الكبرى . وانني أعتقد شخصياً ان الاستمرار في عمليات التنقيب التي ما زالت في بدئها على أيدي بعثة واندل فيليبس سيؤدي حتماً الى كشف مركز حضارة الجنوب العربي في حضارتنا المتوسطية ، والدور الذي لعبته الجزيرة العربية قبل الاسلام في العالم القديم . ويقول المؤرخ العربي الكبير الاستاذ فيليب حتي : « ان المرحلة السبئية تمتد تقريباً من سنة ٩٥٠ الى ١١٥ قبل المسيح . وفي هذه الفترة كان السبئيون في أوج مجدهم التجاري وقوتهم ، حتى انهم بسطوا سيطرتهم على خطوط المواصلات المؤدية عبر الحجاز الى الشمال . وكان لهم ايضاً مستعمرات على طول هذه الطرقات .

الامبراطورية الحميرية

في سنة ١١٥ قبل الميلاد بدأت مرحلة الحميريين الكبرى في الجنوب

العربي . وحمير هي اكثر العائلات المالكة شهرة . ومع ذلك فانها ليست معروفة الى درجة كافية . في ظلها ، توحّدت العربية السعيدة وحملت حضارتها الى الحبشة في الغرب والى قلب آسيا في الشمال . وهكذا تجلى الاشعاع الحميري في أبهى مظاهره ، ولكن ذلك كان الاوج قبل الانحطاط . لقد حمل الحميريون أسياد مأرب لقب ملوك سبأ في ظل العائلة المالكة الأولى التي امتد عهدها حتى سنة ٣٤٠ بعد الميلاد . في هذه الحقبة الاولى ضموا « كتابان » الى مملكتهم ثم حضرموت فيما بعد . وفي أواخر القرن الثالث الميلادي وُحّد الجنوب العربي كله تحت سلطانهم. في ذلك الحين بلغ الحميريون أوج عزهم وقمة مجدهم وقوتهم . اذ كانوا يشرفون على طريق البخور القديمة ، وكذلك على سد مأرب الكبير احدى عجائب العالم القديم . وقد طمع الرومان في السيطرة على بلادهم ولكن محاولات الاحتلال باءت بالفشل . وأشهرها كانت محاولة القائد الروماني ابليوس غمالوس في سنة ٢٤ ق. م. التي قضى فيها عشرة آلاف جندي نحبهم بسبب حرارة الصحراء قبل ان تكتحل عيونهم برؤية العربية السعيدة . وفي أول عهد العائلة المالكة الاولى كذلك اجتاز عرب اليمن وحضرموت البحر الأحمر ليرسوا قواعد الامبراطورية الحبشية ؛ ولكن الامبراطورية الحميرية بدأت في التدهور على أثر المنافسة التجارية الشديدة التي واجههم بها الرومان بعد احتلالهم لمصر . وكان ان عرف هؤلاء مواعيد الرياح الموسمية فتجنبوها ودخلت مراكبهم آمنة المحيط الهندي . عندئذ دق ناقوس الخطر ينذر ازدهار العربية السعيدة بالزوال .

ولم يمض وقت طويل على خسارة الاحتكار التجاري في المحيط الهندي ، حتى ابتليت الامبراطورية العربية الحميرية بحدوث اول ثقب في سد مأرب . كان السد الهائل يجمع المياه المنحدرة من الجبال اليمنية ومن البحيرة المتكونة وراءه ، كان يتم توزيع مياه الري على آلاف

الهكتارات بطريقة علمية . ومن جراء حدوث هذا الثقب تدفقت المياه وأغرقت الحقول التي كانت ترويها من قبل . وكان لا بد ان تحدث اول هجرة جماعية كبيرة على أثر هذه النكبة . وحسب روايات بعض المؤرخين أعيد بناء السد وأصلح موقتاً ولكنه عاد وانهار نهائياً في القرن السادس ، وذلك لأن السكان الذين افتقروا وضعفوا لم يعد في امكانهم المحافظة عليه والسهر على سلامته . وفي حقبة الانحطاط المتزايد هـذه غزا الحبشيون اليمن لأول مرة في سنة ٣٤٠ ميلادية ولكنهم طردوا منها في عام ٣٧٨ ب. م. واستطاع الأباطرة الحميريون الذين نسميهم التبعيين ان يستعيدوا عرشهم . وفي هذه الحقبة الحميرية الثانية دخلت الديانتان المسيحية واليهودية الى اليمن الوثنية .

المملكة اليهودية

وفقاً لما يقوله الدكتور حتي أرسلت أول بعثة مسيحية الى الجنوب العربي بناءً على أوامر الامبراطور قسطنطين سنة ٣٥٦ برئاسة تيوفيلوس أندوس ، وبدأ المرسلون المسيحيون يبشّرون بدينهم الجديد الذي كتب له ان يثبت جذوره جيداً في نجران . أما الديانة اليهودية فيظهر انهـا دخلت اليمن عن طريق يهود الحجاز ونجد ، في أواخر القرن الرابع . هؤلاء أنفسهم كانوا من العرب والآراميين المتهودين حديثاً . وقد تم اقناعهم باعتناق دين موسى على يد بعض العائلات التي هربت من يهوذا بعد سقوط أورشليم في يد تيطوس سنة سبعين بعد الميلاد . وعلى الرغم من دخول الديانتين المسيحية واليهودية أراضي اليمن فان الوثنيـة بقيت مسيطرة ، ولم تتلاشَ نهائياً الا بعد ظهور الاسلام .

في نهاية القرن الخامس ، اتسع نطاق اليهودية اتساعاً حقيقياً ملحوظاً

عندما اصبحت دين الدولة في ظل « ذو نواس » آخر الملوك الحميريين التبعيين . وهذا الملك ، بعد اعتناقه الدين الموسوي أراد أن يفرضه على شعبه بأسره ، وادى التنافس بين انصار الاديان السماوية ، والجماعات الحريصة على تقاليدها الوثنية الى اشتعال نيران الحرب الاهلية في البلاد، واغتنم الاحباش الفرصة اذ وجدوا البلاد مفككةً متقاتلةً ، ضعيفةً ، فظهروا مجدداً في الجنوب العربي سنة ٥٢٥ ميلادية وقضوا على المملكة اليهودية لآخر عائلة حميرية . وحاولوا عبثاً ان يحتلوا مكة . واثنـــاء سيطرتهم هذه التي دامت نصف قرن، كان همُّ الاحباش النهب والسلب أكثر من البناء والتنظيم ، لذلك ساعدوا على الاسراع في انحلال العربية السعيدة وانهيارها . هذا وقد بذل الاحباش جهدهم لاقنـــاع اليهود والوثنيين باعتناق الدين المسيحي ، الذي كان عملهم الاساسي وشغلهم الشاغل . ويبدو انه في ظل سيطرتهم ، انهار سد مأرب نهائياً وطغت مياهه غامرة جارفة ماحقة . (وقد ورد ذكر هذا الطوفان في الآية الخامسة عشرة من السورة الرابعة والثلاثين في القرآن) . وأدت هذه النكبة الكبرى الى هجرة شاملة متعددة النتائج ، نحو شمالي الجزيرة ، وشرقي افريقيا والهند والجزر الهندية . واعتقد بصورة خاصة ان هذه التيارات النزوحية ، التي ما زالت مستمرة حتى ايامنا هذه ، هي وراء انتشار الاسلام والحضارة العربية الاسلامية في المتوسط والمحيط الهندي . والمعتقد ان رفاق النبي العربي الاولين ، والانصار كانوا في اكثرهم من النازحين اليمنيين .

في سنة ٥٧٥ ، طرد الفرس الاحباش من الجنوب العربي واحتلوا اليمن وحضرموت . وبينما كانت الامبراطورية الفارسية تميل الى الضعف بسرعة ، كان الاسلام قد اصبح قوة فعالة صاعدة في الجزيرة العربية، وسنة ٦٢٢ تمت الهجرة ، وبعد ست سنوات فقط ، عـــام ٦٢٨ ، انضم « بدهان » المرزبان الفارسي الخامس في اليمن الى انصار محمد

(صلعم) وتم احتلال حضرموت سنة ٦٣٣ . وأمام هذه القوة الصاعدة الضاربة ، تهافت المسيحيون واليهود والوثنيون الى اعتناق الدين الجديد الذي حملت هذه القوة لواءه .

اتساع الامامة الزيدية

منذ ظهور الاسلام ، انتقل مركز الثقل في الجزيرة العربية الى المدينتين المتنافستين في وسط الجزيرة : مكة المكرمة ، والمدينة المنورة، (يثرب) . وقضي على العربية السعيدة ان تبقى تابعة محتلة . ويقول كارل بروكلمان : « توصل النبي العربي قبيل موته الى اقرار النظام في هذه البلاد . ومع ذلك لم يأخذ رسله مكان الملوك المحليين العديدين ، بل بقوا الى جانبهم كمقيمي الدول الاستعمارية الحديثة الى جانب الامراء الوطنيين ». وبعد موت النبي ، اهتزت اركان الامبراطورية الاسلامية وفي ظل خلافة علي ، ثارت اليمن محاولة استعادة استقلالها . غير ان الثورة قمعت بشدة ، وبقي الجنوب العربي مسلماً . وكان هذا الجنوب، في ظل الخلفاء الاول ، مقسماً الى ثلاث ولايات . وفي سنة ٨٩٣ ، برزت شمالي اليمن على ايدي عائلة سعادة المالكة ، المذهب الزيدي الذي توطد في البلاد . وفي البدء كانت سلطة الامام الزيدي لا تتعدى اسوار مدينته . وعندما تفككت اواصر الإمبراطورية الخليفية في القرن العاشر كانت اليمن وباقي الجنوب العربي ، من بين المناطق الاولى التي انفصلت عن الخلافة . وقسمت المنطقة الجنوبية من الجزيرة الى مجموعة من الامارات المتنافسة حيث استمرت المعارك من اجل السيادة . وحارب الزيديون دون كلل محاولين فرض سيطرتهم التي بقيت حتى العصر الحديث اسمية اكثر منها فعلية . والقبائل الجنوبية وخاصة قبائل حضرموت التي حافظت على مذهبها الشافعي ، تحملت بفارغ صبر السيادة الزيدية .

وفي كل مرة كان يهدد الجنوب العربي خطر خـــارجي كان هؤلاء الامراء الوطنيون المتنازعون يتناسون خصوماتهم لمواجهة العدو الغاصب .

طيلة المرحلة الممتدة من القرن العاشر حتى القرن السادس عشر جدد المصريون والبرتغاليون والهولنديون والانجليز والاتراك المحاولات الرومانية لإخضاع الجنوب العربي السعيد . وفي نهاية القرن الثاني عشر نزلت جيوش صلاح الدين في تلك البلاد ، ثم جاء دور الاحباش وتلاهم مماليك مصر . وفي سنة ١٥١٣ ، وصل القائد البرتغالي المشهور البوكرك وقد فشل اول الامر في احتلال عدن ولكنه نجح في مدينة مخا . وبعد ذلك انتشر البرتغاليون في الساحل الجنوبي من الجزيرة حتى الخليج العربي زارعين القلاع والحصون . من هذا الساحل طردهم المصريون ، كما اضطرهم الفرس والعرب على ترك حصونهم التي بنوها على ضفاف الخليج العربي . ولما احتل العثمانيون مصر ، اعـــترف الجنوب العربي التابع لها بسيادة الباب العالي . ووصل العثمانيـــون الى اليمن في سنة ١٥٢٨ ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يثبتوا اقدامهم هناك الا بعد معارك ضارية استمرت اربعين سنة . وانتهت هذه السيطرة في سنة ١٦٢٨ ، على اثر ثورة شعبية عارمة . بعد خروج العثمانيين ، اصبحت البلاد فريسة النزاعات الداخلية . وفي سنة ١٧٠٣ ، انفصلت حضرموت عن اليمن بعد ان كانت تابعة لها اسماً . ثم جاء دور مقاطعات الجنوب ومن بينها سلطنة لحج ، التي اعلنت سنة ١٧٢٨ ، خروجها على طاعة الأئمة الزيديين في صنعاء .

خلال ذلك الوقت كان اكتشاف البن وزراعته ، قد ادى الى تدعيم اقتصاديات البلاد من جديد . وفي العربية السعيدة يعتقد انه تم اكتشاف البن عندما لاحظ احد الرعاة حيوية قطيع من الماعز بعـــد قضمه أثمار شجيرة معينة . وبسرعة غطت منحدرات اليمن شجيرات البن . وأخذ يصدر عن طريق ميناء مخا الذي اكتسب شهرة عالميـــة

بفضل هذه التجارة الجديدة . وقد استثمر الهولنديون هذه التجارة فترة من الوقت ، كما ان الفرنسيين عقدوا اتفاقاً تجارياً مع الحاكم الذي كان يحكم مخا ، على البحر الأحمر باسم الامام . ثم ازداد التنافس حدة بين الدول البحرية المهتمة بطريق الهند . اذ ذاك كانت شركة الهند الشرقية البريطانية تسعى الى اقامة محطة وقود على طريق الهند فتطلعت الى مكلا وسوقطرة ، ثم تفاوضت سنة ١٨٠٣ مع سلطان لحج بشأن استخدام خليج عدن لهذه الغاية . وفي عام ١٨٣٩ جاءت المناسبة الذهبية اذ اسيء معاملة بعض الرعايا البريطانيين — فأتاح الحادث لجنود البحرية البريطانية احتلال عدن . وبعد محاولتين فاشلتين قام بهما سلطان لحج لاستعادة سيادته على عدن ارتضى اخيراً وجود البريطانيين .

وفي الوسط كانت الجزيرة مسرحاً لاحداث جسام . حيث ادت حركة الوهابيين الى تدخل القوات المصرية التي ارسلها محمد علي . وقد احتلت جيوش ابراهيم باشا اليمن بعد معارك ضارية ، وتنازل أمامها بعد سقوط عاصمته صنعاء . وفي سنة ١٨٤٠ ، جلت القوات المصرية عن اليمن لتحل مكانها القوات التركية . ولكن الثورات القومية لم تمهلهم كثيراً هناك . وقد استمرت القوات العثمانية مع ذلك ، في احتلالها للمناطق الساحلية ، ولبعض الاماكن المحصنة ، حيث كان عليها ان تواجه غارات الجبليين اليمنيين . وفي ما بين ١٨٤٠ و ١٩١٨ كانت اليمن تعتبر ولاية تابعة للباب العالي مباشرة . وفي سنة ١٨٧٢ نجح الاتراك الذين كانوا شاكي السلاح في الدخول الى صنعاء مجدداً ، ثم في التوسع وبسط سلطانهم على القسم الاكبر من البلاد، حيث اقاموا حكومة عسكرية . ولكن الثورة انفجرت فجأة وظل النزاع مكشوفاً حتى ذاك اليوم من سنة ١٩٠٥ ، الذي توجه الامام يحيى فيه ، على رأس الثوار لاسترجاع عاصمته صنعاء ، وطرد الاتراك منها . وبعد حصار قاس انتصر الامام واعلن امام الجماهير سيادته على العاصمة ، قبل ان ينصرف

الى متابعة القتال . وفي سنة ١٩١١ ، اعترفت معاهـدة دهان بالامام يحيى سيداً على اليمن في نطاق الامبراطورية العثمانية .

وفي جنوب الولاية العثمانية ، لم يبق البريطانيون ساكتين . بل توغلوا في غاراتهم الى الداخل وراء عدن وقد وجدوا هناك امراء صغاراً على أتم الاستعداد لقبول « الحماية » البريطانية مقابل مساعدات من المال والسلاح : وكان من نتيجة توقيع معاهدات « الحماية » بين بريطانيا ورؤساء المقاطعات التسع ، وحضرموت ، بين ١٨٧١ و ١٩١٥ أن أصبح قسم كبير من الجنوب العربي خاضعاً لسلطان نائب الملك البريطاني في الهند ، الذي كانت عدن تابعة له : . والجدير بالذكر أن اكثر هذه الاراضي كانت قد وصلت الى هذه الحالة عندما حددت سنة ١٩٠٤ لجنة بريطانية تركية مشتركة الحدود الفاصلة بين ولاية اليمن والمقاطعات التسع التي دخلت في منطقة النفوذ البريطاني . وقد ادخلت هذه المواثيق كلها في المعاهدة الانجليزية العثمانية الموقعة في لندن عام ١٩١٤ : تلك كانت الحالة ابان الحرب العالمية الاولى التي احتفظ فيها الامام بولائه للعثمانيين حلفائه : وخلالها جاءت القوات اليمنية العثمانية وعسكرت أمام عدن من سنة ١٩١٥ حتى نهاية الحرب : أما البريطانيون فقد حصنوا قاعدتهم وضربوا الحديدة ، واحتلوا جزيرة قمران . وبعـد اندحار العثمانيين في الحرب واعلان الهدنة جلت القوات التركية من اليمن وأعلن استقلال البلاد :

النفوذ البريطاني

منذ اعلان استقلال اليمن أخذ كل قسم من الاقسام التي تشكـل العربية السعيدة يسير في اتجاه مختلف . وسنة ١٩٣٤ تعتبر نقطة تحول فاصلة بسبب معاهدة « ايها » السعودية اليمنية ، ومعاهدة صنعاء الانجليزية

اليمنية بصورة خاصة (١١ شباط سنة ١٩٣٤) . وبعد أن فشلت جميع المحاولات البريطانية لادخال اليمن في منطقة نفوذهم ، قام الانجليز بعمل جوي سريع لارجاع قوات الامام الى ما وراء حدود عام ١٩٠٤ . ومن ثم ، بعد مفاوضات طويلة ، استغل الانجليز خلافات اليمن مع السعودية ، جارتها الشمالية . وفيما كانت الحرب اليمنية السعودية مشتعلة ، استطاع حاكم عدن الكولونيل برنارد ربلي الذي أصبح « سير » فيما بعد ، أن يحصل على موافقة الامام بشأن توقيع اتفاق يعترف الامام فيه بالوضع الراهن على الحدود الجنوبية « بانتظار مفاوضات جديدة » . وقع اتفاق صنعاء لمدة أربعين سنة . واعتبر نصراً كبيراً نال الكولونيل على أثره مكافأة معنوية جعلت منه فارساً بأمر ملك بريطانيا . وهكذا بعد أن أطلقت أيديهم انصرف الانجليز الى تنظيم حكمهم للمقاطعات التسع . فضمت الى حضرموت وشكلت معاً ابتداء من سنة ١٩٣٧ ، محمية عدن . ثم صدر قرار اداري لاحق ميز بين المحميات الغربية وهي المقاطعات التسع سابقاً ، والمحميات الشرقية التي تضم حضرموت والى جانبيها الواحدي الى الغرب ، ومهرة الى الشرق .

وفي اليمن ، كان على الامام أن يحارب طويلا ليقضي نهائياً على تمرد قبائل الجنوب الثائرة . وقد استطاع ابنه سيف الاسلام احمد أن يقضي على ثورة الزرانيق . واعتباراً من سنة ١٩٣٠ ، يمكننا القول بأن الاسلام عاد الى اليمن تقريباً . وبعد مغامرته ضد عبد العزيز ، رأى الامام حدوده الشمالية قد تثبتت . عندئذ تطلع الى الجنوب حيث كان النفوذ البريطاني يقلقه ويهدده ؛ فنقض شرعية الوجود البريطاني في عدن خوفاً من أن يتغلغل النفوذ الاجنبي الى داخل البلاد اليمنية . لقد حاول امام اليمن منذ حصوله عل الاستقلال أن يستعيد المقاطعات التسع . وعندما عملت قواته على انتزاع امارة الضالع تدخل السلاح الجوي الملكي

البريطاني في المعركة وأرغمها على التراجع عن الامارة خائبة ، ودخلت ايطاليا الفاشستية الحلبة معتقدة أن في امكانها ان تستفيد من هذا النزاع القائم بين الامام والبريطانيين ، فاعترفت عام ١٩٢٦ باستقلال اليمن ، الامر الذي أقلق لندن . ثم تلا ذلك دخول روسيا السوفياتية الى المسرح بتوقيعها ميثاق الصداقة والتجارة مع البلد العربي .

لم يضع ميثاق صنعاء الموقّع سنة ١٩٣٤ ، فوراً نهاية للمناقشات التي كانت تنغّص العلاقات الانجليزية ـ اليمنية . الا أن الاعتراف بوجود حد ما والاتفاق عليه بين الطرفين يشكلان مستنداً وأساساً تقوم عليه الاحتجاجات في حال صدورها . ولسوء الحظ لم تكن الحدود التي عينتها اللجنة الانجليزية ـ التركية سابقاً والتي اعترف بها الامام ، سوى ثلث الحدود الوهمية بين اليمن والاراضي التي خضعت للحماية البريطانيـــة . والانفراج في العلاقات الذي تلا توقيع معاهدة صنعاء بين اليمن وبريطانيا أصبح هو نفسه موضع بحث عندما حاولت سلطات عدن البريطانية أن تتوغل الى الداخل في مناطق غير واضحة الحدود . وفي عام ١٩٣٧ ، اشتد النزاع بين اليمنيين والانجليز ، على أثر صدور القانون الملكي البريطاني الذي يحدد ما أسماه الملك جورج الخامس (محمية عـــدن) . وارتفعت الاحتجاجات ، واندلعت الاضطرابات ، بشأن السيادة على القبائل البدوية المتنقلة ، في منطقة الحدود . ان « منطقة الحدود » تعني هنا حزاماً من الاراضي يتراوح عرضه بين خمسين ومئة كيلومتر ، وله عند البريطانيين مفهوم أقسى .

في عام ١٩٣٨ بقيادة هاملتون ضابط الاستخبارات ، احتلت قوات بريطانية واخرى وطنية خاضعة للنفوذ البريطاني وتعمل لحساب التاج البريطاني منطقة شبوه التي تشكل الزاوية الشمالية الغربية للمستطيل الذي تألفت منه محمية عدن الشرقية . وقد ترك احتجاج الامام الشخصي على هذا العمل

صدى بعيداً . والسر من وراء كل ذلك مفهوم . ففي كتاب نشر بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ ، يشير مؤلفه هاملتون ـ الذي أصبح الماستر اوف بلهافن الى أنه لاحظ نضيض البترول في شبوه اثناء احتلال قواته لها ولما كانت السلطات البريطانية أعجز من أن تجد مبرراً لهذا العمل في معاهدة تعطيها بعض الشرعية الصورية ، لذلك ادعت السلطات البريطانية في عدن وجود اتفاق شفوي بسيط بينها وبين قبائل سيار البدوية التي تسكن في تلك المنطقة ، يضع هذه القبائل في ظل الحماية البريطانية . وعلى كل حال فإن هذه الحجج الواهية لم تستر على الامام واتضح لكل ذي عينين أن البريطانيين قد أخلوا بعهودهم .

وفيما يتعلق بالصلات بين اليمن وايطاليا الفاشستية فقد بقيت جيدة ؛ وكاد الهجوم الفاشستي على الحبشة المقابلة ، ان يقلق الامام وكان لا بد لعملاء الدوتشي من أن يستغلوا كل براعتهم الدبلوماسية لتطمين اليمن وعمل هؤلاء على قدم وساق ، خاصة بعد توقيع المعاهدة اليمنية ـ الايطالية الجديدة عام ١٩٣٧ ، التي تلتها سلسلة من البعثات الفنية والطبية الايطالية الى اليمن . وفي عام ١٩٣٨ ، أرسل السوفيات بعثة جديدة الى اليمن وجددوا المعاهدة السوفياتية ـ اليمنية لعشر سنوات ؛ واليابانيون من جهتهم ، حاولوا عن طريق « شركة يابانية يمنية » أن يوثقوا علاقاتهم بالمملكة اليمنية في الجنوب العربي . وحاولت قوات المحور أن تزعج قوات بريطانيا وفرنسا على جانبي باب المندب ، الاولى في عدن والثانية في جيبوتي واشتد الضغط هنا عندما ازدادت حدة التوتر في اوروبا . غير أن الدبلوماسية البريطانية والفرنسية استطاعت أن تحصل من الامام على تصريح واضح أعلن فيه حياده التام إبان الحرب العالمية الثانية . وفرنسا التي كانت قد اعترفت باستقلال الامام سنة ١٩٣٦ تركت له السيادة على رأس « الشيخ سعيد » في طرف الجزيرة ، عند باب المندب :

حركة انقلابية

اثناء الحرب العالمية الثانية تنافس عملاء المحور خاصة الايطاليون تنافسوا مع العملاء البريطانيين لكسب الامام يحيى ، كل الى جانبه . غير أن الامام الشيخ أصر على المحافظة على وعده بالبقاء على الحياد . ووزير الخارجية القاضي راغب بك وهو دبلوماسي سابق عرف باريس وسان بطرسبرج ويجيد الفرنسية بطلاقة ، كان دوماً يُسدي النصح للامام . وقد أصبح هذا السياسي اليمني فيما بعد أكبر نصير لتوقيع معاهـــدة يمنية اميركية . كما كان رسول العناية الالهية للفرنسيين المقيمين في صنعاء . وبعد الحرب العالمية الاولى بدأت الدول الكبرى من جديد تتنافس على كسب ود اليمن التي أصبحت سنة ١٩٤٥ عضواً في جامعـــة الدول العربية . وفي ايلول سنة ١٩٤٧ قُبلت اليمن في منظمة الامم المتحدة .

ويعتبر مصرع الامام يحيى في السابع عشر من شباط سنة ١٩٤٨ نقطة تحول في تطور البلـــد . وهذا الانقلاب قد دبره الامير ابراهيم على رأس عدد من المنفيين اليمنيين . وعقب هذا الحادث التاريخي أعلن أسياد اليمن الجدد عزمهم على السير ببلدهم في طريق التطور والتعاون الوثيق مع الغرب . غير أن انتصارهم كان قصير الامد ، اذ استطاع الامير احمد على رأس القبائل الموالية في الشمال ، أن يقضي على المغتصبين في أقل من ثلاثة أسابيع . واعتلى العرش مكان والده . وأولئك الذين وضعوا فيه آمالهم جميعها قد خاب ظنهم نوعاً . اذ ان الملك الجديد اختار سياسة الحذر ولم يفتح بلاده على الخارج الا شيئاً فشيئاً ، وعلى التقدم الا جزءاً جزءاً . والمحاولة الانقلابية الثانية التي حدثت في نيسان سنة ١٩٥٥ هذه المرة على أيدي أمراء أشد تحمساً للاصلاحات الجذرية دفعت سيد العربية السعيدة الى التفكير . وهي ان فشلت ولم توصـــل

بطليها الاميرين عبد الله وعباس أخوي الملك اللذين كانا مقتنعين بفكرة التعاون مع الولايات المتحدة وبريطانيا الى الحكم فانها كانت ذات أثر بليغ في المملكة . واذا كان الامام احمد قد احتفظ بعرشه فانه بعد أن عرف من أين تعصف الرياح قد اضطر أن يسير هو نفسه في الطريق التقدمية التي كان اخواه يريدان أن يدفعا ببلدهما فيها دفعاً .

المستوى الحياتي في اليمن

ان الثغرة التي فتحت في الجدار اليمني تتناول العلاقات الخارجية أكثر من أي شيء آخر . أما في الداخل فإن أكثر أنظمة العالم استبداداً يبسط ظلاله على اليمنيين : ترى هل هذا لسوء طالعهم ؟ ان انطواءهم على أنفسهم قديم ، ومن العسير الحكم والجواب على السؤال : ومهما يكن فان حالة التأخر معروفة ولا يمكن تجاهلها . ولا ريب ان امكانات التحسن موجودة وليست متعذرة . وعلى أثر زيارة قامت بها الدكتورة سوزان سيرين قبل ارسال البعثة الطبية الفرنسية الى اليمن وصفت عام ١٩٤٦ ، حالة اليمنيين الصحية بعبارات مؤلمة فعلاً لم يتغير منها شيء . فهناك جميع الامراض الوبائية المدارية ، التي يساعد انعدام وجود العناية الصحية على انتشارها ، والنقص في الغذاء يهتك الاجسام ويجعلها تحت رحمة الاشتراكات المرضية . والمجاعة لا مفر منها اذ انه في حالة ضآلة المحصولات في المناطق يصعب ايصال الاغذية الى السكان لانعدام طرق المواصلات . ونسبة الوفيات بين الاطفال ٩٠ ٪ .

وفي حالة البؤس الشنيع هذه ، يتعزّى اليمني بسهولة اذ يمضغ القات (مخدر) ولكن ذلك يدهور حالته من سيء الى اسوأ . وهذا المخدر شائع الاستعمال على طرفي باب المندب ، في الجنوب العربي وفي الحبشة والصومال الافرنسي . وهو عبارة عن اوراق طرية لشجيرة

القات تستهلك خضراء لتعطي نتيجتها في بعث الانشراح في النفس وتطرد النوم عن الجفون . ولدى قطافهـــا تُصدّر هذه الأوراق الخضراء على متن الطائرات وتُباعُ بأسعار مرتفعة .

وفي اليمن ، يتوقف كل نشاط تقريباً بعيد الظهر وينصرف الجميع الى مضغ ورق القات . وافقر فقراء اليمن يحرمون انفسهم من الغذاء لشراء المخدر الذي يسكرهم فترة من الوقت . وهـــذا التخدير اليومي يدفعون ثمنه اضطرابات معدية ومعوية عنيفة مؤلمة . كما ان الاستعمال المستمر للقات يضعف القسم الاكبر من السكان ، الذين ينصرفون الى البلادة والخمول التام عدة ساعات كل يوم .

على اثر زيارة الدكتـــورة سيرين ، توجه عدة اطباء فرنسيين الى اليمن ، ووضعوا علمهم واخلاصهم في خدمة شعبها المخلص . وقد مات احدهم الطبيب ريبوليه اثناء مهمته في اليمن ، بعد ان بدأ في تعز ببناء مستشفى جديد ، لم يمهله القدر لرؤيته جاهزاً . وقد سجلت بعثة الكاتبة السيدة كلودي فيان والآنسة لانسوي لفرنسا صفحة من نور . كما استطاعت الآنسة هرمان ان تبقى في اليمن طيلة خمس سنوات ، وتعمل بشجاعة نادرة . وبسبب اتساع نطاق المهمة كان لا بد من جيش من الاطباء بل جيوش عوضاً عن بعثات لا تتجدد الا نادراً لعدم وجود ما يرغب بالنسبة لمن ليس فيه روح التضحية والرسالة . وحتى في هذه الحالة يجب الانتصار على الكثير من تثبيط الهمم . وهذا هو بالفعل المثل الذي يعطيـــه طبيب العيون المشهور الدكتور غولوفين وقد نجح الممثل الوحيد للبعثة الطبية الفرنسية منذ عام ١٩٥٦ مع زوجته لأول مرة في العالم في عملية تطعيم قرنية القرد . ومن جراء المنع الذي فرضته السلطات الدينيـــة ، اضطر الدكتور الى الاقلاع عن هذه الطريقة ، واوقف تجاربه . وبقي مع ذلك ، في تعز ، حيث يتابع اعتناءه بالمصابين بداء التراخوما .

ان المستوى الثقافي في اليمن ليس افضل من المستوى الصحي. وجميع اولئك الذين يشعرون بالتأخر الذي يكبّل الامام البلاد به ، يتبعون من سبقهم من المهاجرين ، ويحرمون اليمن هكذا من نخبته المثقفة . وفي الخارج شكّل اليمنيون جمعيات نشيطة ، تقوم بدعوات واسعة مركزة ضد الامام ونظامه الاستبدادي . وكما دلت على ذلك التجـارب التي اجرتها السيدة فيان يعتبر ذكاء اليمنيين الفطري مشابهاً وموازياً لذكاء اكثر الشعوب تطوراً . وهم في بعض الاحيان مزودون برقّة وليونة في التفكير لا تُجارى .

ان التركيب الاجتماعي في اليمن هو احدى مخلفات حضارته القديمة وقد كتب الاستاذ غويتن بهذا الخصوص يقول ان المجتمع اليمني الحالي مجتمع يقوم على الاساس الطبقي ، اي طبقات مختلفة الواحدة فيها عن الاخرى ، في كل الميادين الاقتصادية والاجتماعية والدينية . وتتألف الطبقة العليا من الاسياد المعروفين انهم من سلالة النبي ، الذين هم كبار ملاكي الاراضي والعقارات ، وكبار الموظفين الاداريين ، اما المزارعون ، واصحاب الحرف ، والمتحدرون من العبيد ، والقبائل البدوية ، فإن كل فئة منهم تشكل طبقة خاصة ، مقفلة لها وظيفتها الخاصة .

ويؤلف اصحاب المهن احياناً جمعيات قوية . والفلاحون هم اكثر الطبقات تعاسة وبؤساً ، وكما هي الحالة في الشرق يرتبط الفلاح بأرضه بسبب الدين والربا في شبه عبودية . واكثرهم شقاء ، لا يجدون مخرجاً لهم من بؤسهم ، سوى الانضمام الى جيش الامام . ويمكن القول ان حالة العبيد الذين نجدهم في خدمة العائلات الغنية هي بدون شك ارفع من الظروف الحياتية التي يحياها الفلاحون المعوزون .

هكذا تعيش اليمن التي كانت سعيدة فيما مضى ، والتي يمكنها ان ان تكون كذلك من جديد . ان الاسياد الذين قد يخسرون كل شيء يخافون التقدم والتطور لذلك يعارضون بشدة كل اصلاح والامام الكهل

المريض يستند على اكثر رعاياه انعزالية وتعصباً للمحافظة على عرش مهدد بحملات المنفيين . وفي اواسط القرن العشرين ، يعطي التركيب السياسي الاجتماعي لليمن مثلا نادراً لنظام ملكي مطلق يعود الى ما قبل عهد الاقطاع ٥

obeikandl.com

٩

في ظل حكم الإمام الملك

يحمل الملك الزيدي مثل اسلافه في القرن التاسع لقب (امام) . وهذا اللقب وحده يكفي للتدليل على اولوية الصفة الرجعية في مهمته . فالامام هو كبير رجال الدين وهو بالنسبة للزيديين كالآغا خان بالنسبة للاسماعيليين . ومن الطبيعي ان يكون رئيسٌ روحيٌ اعلى في بلد كهذا ملكاً زمنياً مطلق السلطة . انه السيد الوحيد بعد الله ، على مملكته وشعبه الذي يسكنها ، واملاك هذا الشعب . اننا هنا امام مملكة قائمة على مبدأ الحق الالهي في اقصى حدوده الممكنة ، تشبه الى حد بعيد اليابان قديماً او التيبت حالياً . وهناك تشابه يلفت النظر بين لقب سادة اليمن اليوم وسادتها في ظل الحميريين التبعيين ، فكلمة امام ، ككلمة تبّع تعني في الواقع « الذي يسير في المقدمة » .

منذ تأسيس السلالة الملكية في سعادة سنة ٨٩٣ ، سيطر الائمة على قسم كبير او صغير من العربيـــة السعيدة . والاختلاف المذهبي بين الزيديين والاكثرية الشافعية في الجنوب العربي يمكنه ان يفسر عجز

سادة اليمن عن جمع قبائل المنطقة كلها حول عرشهم . واليوم ، في حدود اليمن المتعارفة على العموم ، من المتفق عليه ان معتنقي مذهب الزيدية في الاسلام هم اقلية . ولكنهم يحتفظون بالسيطرة على البلاد اذ يستأثرون بجميع المراكز الادارية المهمة لا سيما عن طريق احتفاظهم بالعرش . لأنه في الحقيقة ، وهنا اكثر من العربية السعودية، فالتنظيم الاداري والسياسي والقضائي في البلاد لا يوازي شيئاً اذا ما قيس بشخص الملك . فما من قرار مهماً كان او بسيطاً يمكن اتخاذه الا بموافقة الملك .

والامام الحالي ، احمد بن يحيي بن محمد حميد الدين ، خلف والده على اثر ثورة سنة ١٩٤٨ وقد استعاد العرش بعد معارك عنيفة دامية ، ويلقب من رعيته لدهائه وشجاعته باحمد « الجن » وقد سبق له ودحر عندما كان قائداً عاماً لجيوش والده الامام ، قبائل الزرانيق الثائرة في منطقة تهامة الشديدة القيظ . وعُيّن فيما بعد ولياً للعهد ، وكلّف ادارة منطقة الحدود الجنوبية ، الى جانب ادارة منطقة تعز ، التي تحاذي محمية عدن البريطانية . وفي تعز ، عندما خلف والده ، فضل احمد ان يثبّت عاصمته ، تاركاً صنعاء العريقة الخائنة ، التي اباحها لجنوده على اثر العصيان . ومن قصره المحصن في « صاله » على مسافة كيلومترات من المدينة ، يدير الامام شؤون بلده لا يفوته منها لا شاردة ولا واردة ، وينسب الشعب اليه مواهب عجائبية ، وقد زادت الاحداث هذا الاعتقاد رسوخاً ، وبفضل ذلك استطاع احمد الجن ان يستعيد عرشه الذي خسره بعد انقلاب سنة ١٩٥٥ ، لقد كان الامام احمد مُحاصراً من قبل قوات اخيه عبد الله التي يبلغ عددها الالفين واضطر الى ان يوقّع في الثلاثين من آذار سنة ١٩٥٥ ، بياناً يعلن فيه تكليف اخيه بتصريف الامور العادية ، لانحراف في صحته . وعندما علم في الثالث من نيسان بأن ابنه البدر ، بتشجيع الملك سعود ، وتأييده بدأ يحشد القبائل الموالية في

في الشمال ، ولاحظ ترددا في معسكر الثائرين ، هبّ في فجر اليوم وصعد الى سطح قصره المحاصر ، محاطاً ببضعة جنود من أنصاره ، وقفز الى مدفع رشاش صوّبه على المتمردين وفتح عليهم النيران . كانت المفاجأة كبيرة ، ففقد المحاصرون معنوياتهم واستسلم بعضهم وفرّ القسم الآخر .. وهكذا انتهت الازمة خلال خمسة ايام ، وبقي احمد الجن إماماً وملكاً على اليمن .

حكومة صاحب الجلالة

كانت هذه الثورة الفاشلة نذيراً للملك ، مما حمل فئة موالية تقدمية من رعاياه على الاعتقاد ان الامام احمد سيتبع طريقة جديدة في الحكم . وفيما عدا بعض مظاهر التجديد الشكلية ، مثل تأليف مجلس للوزراء ، فقد بقي القديم على قدمه والنظام العتيق على حاله ، ولم يبق أمام « التقدميين » إلا ان يهاجروا ، وأمام المعتدلين إلا ان يضعوا آمالهم جميعها في ولي العهد سيف الاسلام البدر ، الذي بدأ يفرض نفسه . قد يكون هـذا الأمل لوناً من السراب أو الوهم ، إذ أنه اذا عدنا بالذاكرة الى الوقت الذي كان يحيى يحكم فيه تذكرنا ان احمد كان يُعتبر اميراً تقدمياً ، ومع ذلك عندما استلم الملك لم يحقق شيئاً فعلياً من التقدم ، وثبط عزائم النخبة بصورة خاصة من الشافعيين الذين ضيق عليهم الموظفون الزيديون الخناق . ان المسؤلين في كل الدرجات ينتمون جميعهم الى طائفة الملك الامام . وفي الدرجة العليا يسيطر دائماً جماعة « الاسياد » الذين يتراوح عددهم بين عشرين وثلاثين الفاً وهم اغنياء ويمثلون طبقة الاشراف .

وفي القمة يتحكم الملك ويقرر محاطاً بمستشاريه الذين وضع فيهم ثقته . واذا أردنا ان نعرف كيف تعمل هذه الحكومة الفردية فان علينا ان

نقرأ ما كتبته السيدة كلودي فيان فانهـا تعطينا عن ذلك فكرة بديعة إذ تقول :

« لا تنفصل حياة الملك الرسمية مطلقاً عن حياته الخاصة . فهو لا يأتي الى تعز ، الى قصر الحكومة ، إلا من أجل الاستقبالات الرسمية والحفلات . أما استقبالاته العادية فتتم في « صالة » ، وفي هذه الحالة يبقى الملك جالساً على الطريقة التركية ، حتى يتاح للقادم ، اذا كان من طبقة وضيعة ، ان يتظاهر بتقبيل نعل حذائه . واما اجتماعات المجلس فتعقد هنا يومياً ، وأحياناً في الليل .. اجتماعات قاسية ، بدون تبغ ولا قات . لا أحد يستطيع الكلام إلا اذا طلب منه الامام ذلك .. ويتألف المجلس من حوالى خمسة عشر شخصاً يجلسون القرفصاء عـلى أرائك جانب الجدران ، وبالقرب من الملك يجلس رئيس وزرائه الذي يفتح الرسائل ويقرأها له . وذلك لأن طريقة الرسائل للإمام هي الأساس الذي قامت عليه هذه الحكومة . والذي يريد ان يتخلص من روتينية الادارة المحليـة يمكنه ان يعرض قضيته على الامام ، من أي مركز للبريد ، بواسطة برقية دفعت أجرة جوابها سلفاً ، الامر الذي يكلف بضعة تاليرات . بهذا البدل يمكنه ان يكون واثقاً من ان الامام سينظر في قضيته .. ويظهر ان الامام في امكانه ان يفض أكثر من مائتي رسالة في الجلسة الواحدة . وهذه الطريقة هي موردٌ هامٌ لتغذية الخزينة ، الى جانب الرسوم الجمركية ، والدخولية ، وضريبة المحصولات التي يجمعها « مزارعون عامون » : ترى ما هي القضايا التي تعرض بهذا الاسلوب على الامام ؟ كلها طبعاً ينظر فيها بدون استئناف ، سواء أكانت مهمة أو تافهة .. لقد حكم كذلك جمع الائمة الذين سبقوه : واذا فعل الامام احمد غير ذلك شعر بأنه أدنى منهم رتبة ..

قبل انقلاب سنة ١٩٥٥ أوكل الملك بعض المهام الوزارية لأخوته . وكان الامير عبدالله الذي حرّض على الثورة وزيراً للخارجية ، وحسن

رئيساً للوزارة ونائباً للامام في صنعاء . وبعد الثورة أعـــدم عبدالله مع عباس ووضع حسن في شبه منفى إذ عُهد اليه بتمثيل بلاده في الخارج وفي المنظمات الدولية بصورة خاصة .

وفي « الحكومة » المؤلفة في الحادي والثلاثين من آب سنة ١٩٥٥ التي يرأسها الامام احمد نفسه ،يشغل المركز المهم الوحيد ولي العهد سيف الاسلام محمد البدر ، الـــذي يحمل ألقاب نائب رئيس المجلس ووزير الدفاع والخارجية . والقسط الذي يتحمله ولي العهد في ادارة شؤون المملكة يبدو اكبر ، يوماً بعد يوم ، وخاصة في مجال العلاقات الخارجية . وهذا لا يمنع ان الامام الملك ما زال الشيخ الاكبر ، له الكلمة الاولى والاخيرة في أقل التفاصيل .

واليمن مقسمة الى ست مقاطعات يحكمها « امراء » ، والمقاطعات الى نواح يديرها عملاء . وعلى كل من هؤلاء الموظفين ان يبقى على اتصال مستمر برقياً مع الامام . وكل ما لا يدخل في نطاق أنظمة معينة محددة سلفاً يعود أمر البت فيه الى جلالة الامام .

استبداد وهجرة

في مثل هذه الحالات ، هل ندهش اذا رأينا الناس يلجأون الى هجرة جماعية ، وهل نعجب اذا ترك الساسة التقدميون بلادهم ليضخموا صفوف الاحزاب الثورية في المنفى . وفي داخل البـــلاد ، حتى في المناطق التي لا يسكنها إلا الشافعيون عُهـــد بجميع مراكز القيادة الى الزيديين . ونظام الرهائن المختارين من بين ابناء الزعماء يؤمن للامام هدوء القبائل المشكوك في ولائها . والجيش ليس سوى مجموعـــة من المرتزقة . وفي حالة الاضطرابات ، كما حصل في عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٥ يعبىء الامام قواته من قبائل الشمال الموالية . في منطقة الحجة من قبيلتي

حاشد وباقل يمكنه ان يجند أكثر من مائة الف محارب . ونظام كهذا يتحمله الشافعيون والاسماعيليون بفـــارغ صبر مرغمين . والشافعيون ، بصورة خاصة هم الذين يهاجرون ويشنون حملاتهم العدائية على الامام من الخارج . وأكثر الاحزاب نشاطاً حزب اليمنيين الاحرار ، ومركزه في عدن وله فروع قوية بين المهاجرين اليمنيين في الصومال والحبشة والاريتريا ومصر ، وله حتى فروع نائية ، بين عمال موانىء ليفربول وكارديف . والقاهرة هي احدى الركائز الفكرية لليمنيين الاحرار . من هذه الاماكن كلها يوجه اليمنيون التقدميون من أعضاء حزب اليمنيين الاحرار وجمعية اليمن الكبرى باستمرار انتقادات لاذعة للعقبات التي يضعها الامام في طريق تقدم البلاد وتطورها . وبعض هؤلا التقدميين لا يترددون في اظهار استعدادهم ، كما كان يفعل الامراء الخونة العصاة ، لحل النزاع حول المقاطعات التسع حبياً .لذلك تلقوا بلا ريب مساعدات بريطانية . والصحف العربية أو الانجليزية الصادرة في عدن ، والتي تفرد مكاناً واسعاً للقضايا اليمنية ، وتحوي عادة حملات عنيفـــة ضد سياسة الامام . ومن ذلك قول صحيفة « الفضول » في السادس والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٥٢ : « ان اليمن مستقلة ، ولكن استبداد المسؤولين فيها يجعل حالتها مؤسفة ... وخطرة . وعدد اليمنيين الذين تركوا وطنهم سعياً وراء الحرية والحياة اللائقة الكريمة يزيد عددهم على مليون وخمسة وعشرين الفاً . ان قضية اليمن هي قضية القرن العشرين واللاجىء الحقيقي في ايامنا هذه هو اليمني . »

لسنا نستطيع ان نثبت صحة هـــذا القول الذي يحتوي الكثير من المبالغة : ولا ريب لدينا ان جماعات المهاجرين يلعبون دوراً بارزاً في أحداث البلاد الداخلية ، وتوافق المصالح يحملنا على الظن بوجود يـــد بريطانية وراء ثورات سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٥ فالانقلاب الذي بدأ في السابع عشر من شباط سنة ١٩٤٨ بمقتل الامام يحيى كان قد دُبِّر ونفذ

على يد احد اولئك الذين وضع الامام ثقته فيهم ، وعلى رأسهم العراقي عبد الله الوزير ، الذي كان على اتصال وثيق واتفـاق كامل مع فريق من الثوريين اليمنيين المقيمين في عدن الذين يتزعمهم الامير ابراهيم احد ابناء الامام يحيى . وما كاد يصل هذا بالطائرة الى صنعاء بعد بدء العصيان حتى كُتب لابراهيم وانصاره ان يلاقوا حتفهم في عملية التصفية التي تلت إنتصار الجند على العصاة . وفي عام ١٩٥٥ كانت الثورة التي دعا اليها الاميران عبدالله وعباس سابقة لأوانها ، مع ان ميولهم البريطانية كانت يجب ان تؤمن لهم مساندة بريطانيا . وقـد ذكرت صحيفة الجمهورية القاهرية في عددها الصادر في السابع من نيسان بأن زعيم الحركة الانقلابية كان قد درس في الاكاديمية العسكرية في بغداد .

والمآخذ التي يأخذها المهاجرون والتقدميون على نظام الحكم القائم في اليمن متعددة ومختلفة مثل حصر الوظائف المهمة بالزيديين وانعدام وجود أبسط الحريات وعدالة عجولة قاسية ومركزية زائدة من شأنها ان تجعل الاصلاحات التي اتخذها الامام بطيئة ميؤوس منها :

ترى كيف يمكن ان تكون الحال اذا كان الملك في بلد يعد خمسة ملايين نسمة يود ان يقرر شخصياً منح تأشيرة او اعطاء اذن بشراء عشرين ليتراً من البنزين ، أو شراء طائرة أو اعدام مجرم ؟؟

وكيف تسير الامور اذا كان يريد ان يطلع عليها كلها دون شاردة أو واردة ؟؟ وأم الشكاوى التي يرفع عقيرتهم بهـا رعايا الامام هي ابقاء البلاد في حالة جمود اقتصادي ثقافي ، مع ان الدلائل كلها تشير الى امكانية تحقيق مستقبل زاهر متكافىء مع ماضي اليمن المجيد .

لا شك مطلقاً ان نوعاً من التناسق يجب ان يضبط التطور والانماء الاقتصادي في كل بلد من البلدان المسماة بالمتخلفة . وهذا التناسق يستهدف اولاً وقبل كل شيء التوفيق بين رفع المستوى المعيشي والتجدد الطبيعي والثقافي في شعب من الشعوب . أجل ان ذلك ضروري مع شيء من

الاعتدال : ولكن الامراض تأكل اليمن وتقدم السن الذي بلغه الاما ككابوس يربض فوق البلد . والتجارب اللازمة الحتمية في بلد متأخر كاليمن كان يمكن ان تختصر كثيراً لو ان هناك أشخاصاً أكفاء ذوي صلاحية : ومع ذلك فانه قد تحقق في السنوات الاخيرة بعض الاصلاحات الاولية في اليمن المحرّمة . ان القرن العشرين قرن الآلة ، والتهافت على المواد الأولية والاسواق الجديدة بدأ يفعل فعله ، وامواجه تتلاطم بشدة متزايدة عند اقدام الجبال العالية التي تحجب كسد الصين العظيم ، قلب العربية الخضراء . والفجوة التي فُتحت في هذه الجبال بدأت اليوم تُتيح لبعض هذه الامواج ان تتسرب الى الداخل ، واذا كان مـدُّها الحاصل لا يزال قصيراً فإن الخطوات الاولى قد تمت للافادة من الموارد الطبيعية الموجودة في مملكة الائمة الزيديين العريقة . وربما كان ذلك بداية محاولة يقصد بها القضاء على البؤس والشقاء اللذين يطردان ، منذ الف وخمسمائة سنة ، اليمنيين من وديانهم وجبالهم .

بن مخا وفراء اليمن

تعتبر اليمن من بين البلدان ذات الامكانات الاقتصادية الواسعة : ذلك هو رأي الخبراء ورجال الاختصاص جميعاً الذين توالوا على البلد منذ عدة سنوات لاحصاء مواردها ، بناء لطلب الامام ، منهم المهندس الفرنسي السيد اندريه غورليه ، الذي نشر بعد إقامة طويلة في اليمن ، عدة مقالات مدروسة موجزة ما زالت تحتفظ برصانتها وقيمتها حتى اليوم . وقد نقّبت بعثات دولية من مختلف الجنسيات في العربية السعيدة وكشفت عن امكاناتها ثم قدمت اقتراحاتها . ولم يعد مجهولاً اليوم ان مشروعات مختارة مدروسة بدقة يمكنها ان توسع القاعدة الزراعية ،

الناحية الضرورية لكل تطوير اقتصادي . ولم يعد مجهولاً ايضاً ان الثروات المعدنية قادرة على ان تتيح لليمن مواجهة تصنيعها ، والافادة من مواردها الاولية لتدعيم ميزانها التجاري ورفع مستواها المعيشي . غير ان ثروة اليمن الحقيقية تكمن في شعبها الذكي الخلاّق الذي يستطيع ان ينفح بلاده روحاً ثورية بناءة ، شرط مساعدته على الخروج من الغيبوبة وتسليحه بالوسائل اللازمة . واليمن المعاصرة تذكرنا الى حد بعيد ببابان القرن التاسع عشر ومغرب فجر القرن العشرين . ومن الجلي الواضح الذي لا يقبل الجدل ان اليمن لن تستطيع وحدها ان تخرج عن تخلفها الاقتصادي والثقافي الكبير . ان امكانات التغيير الجذري الداخلي هي محدودة جداً بسبب النظام القائم ودرجة تطور السكان . والتدخل من الخارج ضروري لا بد منه وقد بدأنا نرى بشائره الاولى .

ان البلد ما زال زراعياً في الاساس . واليمني مزارعاً كان او راعياً متمسك بجباله في قراه المعلقة كسكان القبيلة في المشتى كي لا يحتل مساحات قابلة للزراعة في الوادي . كان السبئيون القدماء يعرفون كيف يبنون السدود الضخمة ويتفننون في وسائل الري وفي عهدهم كان الجنوب العربي بمجمله بستاناً اسطورياً . اما اليوم فان قسماً كبيراً من البلاد بات بوراً لتعذر اروائه . وفي المناطق المروية طبيعياً ، او عندما تكون مجاري المياه والينابيع من السهل الافادة منها وجرها في اقنية ، ترى الفلاح اليمني النشيط المثابر لا يترك اية بقعة في الارض دون زراعة مهما كانت صغيرة . وعلى سفوح الجبال العالية ، تبدو الزراعة في جلول كأنها سلم نحو السماء . وقد تحمل سيول الامطار الموسمية الغزيرة جدران هذه الجلول ، غير ان الفلاح اليمني الذي لا يعرف الكسل يعود لبنائها ببأس . وسائل الري التي تستخدم الى اليوم في المناطق الغنية بالينابيع ما زالت بدائية . والطرق الزراعية التي لم تتغير منذ قرون ، تفرض على الفلاح ان يلجأ الى زراعة كثيفة مما يتطلب كثيراً من الجهود

وأكثر ضرراً ايضاً هو النظـام الاقطاعي الذي يستغل المزارع المستأجر والربا الزراعي الذي يفتك بالملاك الصغير ويضع حياة اليمني بين يدي رجال الاقطاع والتجار المرابين فهل نعجب اذا هجر الفلاحون اليمنيون الاراضي القديمة المنتجة تهرباً من الديون ونفروا الى زراعات اقل انتاجاً ؟

ان قهوة مخا التي تشكل حتى الوقت الحاضر ، الثروة الرئيسية في البلد ، تشكو من هذه الاوضاع. ولما كانت شجرة القات تتطلب الاراضي الجبلية ذاتها والمناخ نفسه ؛ لذلك حلت محلها في بعض من الاراضي الجبلية الجيدة . وتخفيض المساحات المروية افقد شجرة البن مساحات اخرى ، واذا عرفنا اخيراً ان زراعة البن التقليدية ، يقوم بها الفلاحون الصغار الخاضعون للتجار المرابين فهمنا لماذا يتناقص الانتاج ويهبط منذ عدة سنوات . وما كاد الامام يأخذ علماً بأمر هـذه الاخطار حتى طلب من هيئة الامم إرسال خبير في برنامج المساعدة الفنية الواسعة مهمته دراسة امكانات تحسين زراعة البن . وكانت البعثة الدولية الرئيسية التي توجهت الى اليمن عـام ١٩٥٦ ، تضم اثني عشر اختصاصياً درسوا مختلف فروع النشاط الزراعي وتربية المواشي غير ان تقريرها المرفوع للامام في اوائل عام ١٩٥٧ لم يُنشر . وقـد اهتمت هذه البعثة ايضاً بقضية تحسين تربية الحيوانـات ذوات القرو . اذ ان تصدير الجلود (يمن) يحتل المركز الثاني في تجارة البلد الخارجية . وهو بعد البن ، القطاع الأهم في الاقتصاد الريفي اليمني بل هو اعرق منها واذا حُسن نسل الحيوانات ودبر امر الجلود الخام تمكنت اليمن من ان تضاعف أرباحها من تربية الحيوانات وبيع الفراء . وهنا ايضاً ، منع الربا هو أحد الشروط الرئيسية للتقدم .

ان بناء السدود يجب ان يسبق أي اجراء آخر في حقل الاصلاح الزراعي . ومن الممكن تحسين الزراعة اليمنية بسرعة بفضل حصر المياه وتوزيعها بطريقة علمية . في محمية عدن ، وفي ظروف أقل ملاءمة على

العموم ، استطاعت السلطات البريطانية ان تحصل على نتـــائج جيدة اذ أعطت الاهمية المطلقة للسدود وأعمال الري : كما انه يجب ايضاً التفكير في تحسين طرق الحياة للسكان في نطاق نشاطاتهم التقليدية ، فالى السر القديم لرعايا ملكة سبأ ان نعود ، ببناء سدود جديدة .

نهاية الاسطورة اليهودية

ان الصناعة ، بمعناها الحديث غير موجودة في اليمن . واقامة مصنع للنسيج في صنعاء ، او معمل ترابة في الحديدة ، ما هي الا استجابة لحاجات محلية على صعيد محلي ضيق معزول ومع ذلك تحت ضغط الحاجة جرى تصنيع بعض الفروع المهنية . وفي عام ١٩٥٠ انقلبت الحياة المهنية اليمنية ومن ورائها الحياة الاقتصادية بكاملها في البلد رأساً على عقب بسبب هجرة يهود اليمن الى اسرائيل . لقد انتظر اليهود اليمنيون خمسة عشر قرناً ، بعد انتشار الدعوة الاسلامية انتظروا طويلاً بفارغ الصبر استعادة ملكهم الضائع . وكما كانت حالة اليهود في البلدان الاخرى اقتصر نشاط اليمنيين اليهود على بعض المهن لانهم مُنعوا عـــن مزاولة غيرها . ولكنهم برعوا في هـــذه المهن واصبحوا هكذا سادة الفنون المهنية في الجنوب العربي : في عام ١٩٤٨ كان عددهم حوالي خمسين الفاً يزاولون كل المهن اليدوية ، ويشكلون عنصراً هاماً في اقتصاد اليمن والمقاطعات التسع .كانوا يصنعون ، ويصلحون ويبيعون آلاف الادوات المفيدة او المستحبة الضرورية او الكمالية التي اعتاد الانسان ان لا يستغني عنها مثل التراجيل ذات العنق الطويل ، الجنبيات (خناجر) البسيطة ، الاثواب المطرزة المتعددة الالوان ، الحلى الدقيقة الجميلة للاناث وادوات المطبخ ، الاقفال الخشبية الفنية والأبواب التي تقفلها ، الأحذية والأحزمة المطرزة ، وكثير غيرها . وما ان سمعوا ذات يوم بأن المسيح قد أتى

وان ملك اسرائيل قد أعتلى عرشه ، حتى تركوا أدوات عملهم وحملوا امتعتهم بعد ان تحزموا بكتاب التوراة ، ثم نزحوا نحو الجنوب وفي عدن أقامت الصهيونية جسراً جوياً نقلهم الى المكان الذي قيل لهم ان المسيح قد جاء ليحكمه .

لقد كنت عند الطرف الآخر في الجسر الجوي عندما وصل يهود اليمن لا يلوون على شيء . وبعد سنوات من ذلك التاريخ ، عام ١٩٥٤ درست بدقة مشاكل دمج هؤلاء اليهود اليمنيين في وطنهم الجديد ، واعتقد ان اسرائيل عندما استقبلت بحفاوة هؤلاء اليمنيين افادت كثيراً منهم .

لقد خطر في بال الامام عن تعقل ان يحتفظ ببعض أرباب المهن المهمة ليعلموا مهنهم الى المسلمين ، قبل السماح لهم بالذهاب ولكن ذلك لم يتحقق . وبعد ذهاب اليهود غابت الأدوات التي كانوا يصنعونها من الأسواق وارتفعت أسعارها ارتفاعاً جنونياً ، واختفت حلاهم الفضية المشبكة بدقة فائقة ومطرزاتهم الناعمة المذهلة وزخارفهم ونقوشهم كلها من أسواق صنعاء لتظهر في أسواق اسرائيل . سيستعيد الاقتصاد اليمني ، على مر الايام دون شك مكانه الطبيعي ولكن التوازن القديم لن يعود في مدة قصيرة اذ أنه ليس من السهل في بلد دون صناعة ، الاستعاضة عن انتاج عشرات الالوف من أرباب المهن والحل لذلك ، يجب أن يبحث عنه في التصنيع ، تصنيع يقصد منه تنسيق الجهود والمعارف أكثر من التهافت على الآلة . ولنأخذ مثلاً على ذلك صناعة السجاد الموشى والنسيج التي دبّ فيها النشاط على أثر التنسيق الأخير . وكي تتمكن اليمن من انجاز التصنيع بمعناه الحديث عليها أن تلجأ الى طلب المساعدات الخارجية المالية والفنية .

الامتيازات والثروات الطبيعية

ليس استثمار الثروات الطبيعية في اليمن والاستفادة منهـــا اقتصادياً ممكنين بصورة عامة إلا بعد تجهيز وتنظيم لا وجود لهما حتى اليوم . من أجل ذلك استصلح ميناء مخا وشقت طريق مخا ــ تعز وعُبدت على أيدي شركة الباتينيول عام ١٩٥٦ . كما أن طريق تعز ــ صنعاء يجري فيها العمل بنشاط . وهنـــا شركة اميركية تدعى « شركة التطوير » اليمنية وهي مكلفة بشق طرقات في المناطق التي تجري فيها تنقيباتها البترولية وبالاضافة الى ذلك هناك اتفاقات متعددة معقودة بين اليمن وكل من الاتحاد السوفياتي ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمانيا الديمقراطية . وهي تقضي بمد شبكة للطرقات وانشاء ميناء حديث جديد . وبين المصانع المنوي انشاؤها بموجب هذه الاتفاقات مصنعا ترابة يستخدم كل انتاجها لاكمال شبكة الطرقات . وهذا بالطبع هو الشرط الأساسي لاظهار قيمة اليمن، وكان قد أشير اليه مراراً في السابق عن طريق المهندس الفرنسي اندريه غورلين سنة ١٩٤٧ وعن طريق البعثات الفنية الالمانية والايطالية التي كانت تنقب في اليمن من قبل .

وتدل اعمـــال التنقيب التي قامت بها مراراً بعثات فنية من مختلف الجنسيات ، ان هناك معادن كثيرة ولكنها لم تستغل . وهذه الثروات المعدنية اصبحت الآن معروفـــة من اولي الاختصاص وقد اكتشف في الشمال في منطقة صنعاء منجم مهم للحديد . وفي الجنوب وجد الفحم الحجري بكثرة حتى انه يبدو على السطح في منحدرات الجبال . وفي صليف عـــثر على منجم للملح كان الاتراك قد بدأوا في استثماره فيما مضى ، واعيد فتحه من جديد . وهذا الملح يحوي نسبة مرتفعة من كلورير الصوديوم تجعله في مصاف افضل المناجم في العالم . وبكلمة

موجزة يمكن القول ان اليمن من البلاد الغنية معدنياً . وتحتوي كثيراً من الذهب والفضة والاورانيوم ، والنحاس والماغنيزيوم والبـــوتاس ، والملح ، والحديد والفحم . وعلى الرغم من هذا الغنى الوفير فإن الذي يهم الشركات الاجنبية ، قبل كل شيء انما هو البترول . وقد عثر على دلائل مشجعة في منطقة صليف حيث حصلت شركة المانية تدعى « ديلمان برغبو » على امتياز للتنقيب ، من الامام عام ١٩٥٤ . والمنطقة التي حددها الامتياز تمتد حول الحديدة في تهامة . ومدة الاتفاق هي عشرون سنة ويصبح لاغيـــاً اذا لم يعثر على البترول في ظرف خمس سنوات . لقد عيل صبر الامام الذي اسهم مادياً في نفقات التنقيب اذ ان الشركة الالمانية بعد مرور ثلاث سنوات كانت اعجز من ان تعد الامام بانتاج تجاري على الرغم من الدلائل الثابتة المشيرة لوجود البترول. وخلال سنة ١٩٥٥ حصل خلاف شديد بين الامام والشركة اذ راحت تطالبه بأموال لمتابعة عملية التنقيب . وبعد بضعة اشهر منح الامام امتيازاً مدته ثلاثون سنة لشركة اميركية هي « شركة التطوير اليمنية » وشملت منطقة الامتياز ثلثي الاراضي اليمنية في الشمال والشرق وعلى حدود الربع الخالي ويرأس هذه الشركة المثري الاميركي الكبير جورج آلن ومدير اعمالها السيد والتر جبلر ، وقد بدأت اعمالها فور توقيع عقد الامتياز وانتهت الابحاث الجيولوجية الاولى في النصف الاول من عام ١٩٥٦ ؛ وفي خريف ذلك العـــام بدأ التنقيب . كما ان آلات الحفر كانت قد أرسلت الى اليمن في شهر ايلول في السنة نفسها . خلال ذلك بلغ سوء التفاهم بين الامام والشركة الالمانية المنقبة في منطقة تهامة ذروته وانتهى بابطال العقد . وفي نفس الوقت الذي كانت الشركة الاميركية تعيد النظر في بنود اتفاقيتها لصالح اليمن ، تبرعت بدفع كل ما صرفته الشركة الالمانية ، مع الاموال المتوجبة لها في ذمة الامام . وهكذا بقيت الشركة الاميركية وحدها، صاحبة امتياز التنقيب عن النفط في اليمن .

وهذا التنقيب يثير بالطبع خلافات كما هي الحال في مناطق اخرى من الجزيرة العربية . وفي الوقت الحاضر لم ترتد هذه الخلافات بعد طابع الحدة ولكن حدود المنطقة المتنازع عليها بين بريطانيا واليمن تقع في المنطقة البترولية المعروفة بيهان – شبوة – عياضه. وفي حياض هذا المثلث المثقل بالآمال ، تعمل احـدى توابع شركة بترول العراق هي شركة الامتيازات البترولية المحدودة التي نالت امتياز التنقيب عن النفط في محمية عدن كلها .

الجبلي والاحتكارات الملكية

في اليمن مظهر من مظاهر النظام السياسي والاقتصادي لا يمكن تجاهله هو الاحتكار العملي لجميع المبادلات التجارية الخارجية ، وقد استطاع تاجر واحد هو الحاج علي محمد الجبلي ، ان يصل في بضع سنوات الى مركز فريد ، مشركاً الملك في كل صفقاته . لقد احيا في الامام حب المال ، بعد ان اشركه بنسبة راجحة في كل الصفقات التجارية. وبفضل الثقة الملكية اصبح هذا التاجر ممثلاً شخصياً للامام في كل ما من شأنه ان يدخل في نطاق الاقتصاد والتجارة . وهكذا اصبح الجبلي الشخص الرئيسي في الاقتصاد اليمني .

انه يشرف مع شريكه الملك على تجارة البلد الخارجية ويحتكران معاً التبادل التجاري الداخلي مثل جمع الجلود والقات والبن وجميع المنتجات المعدة للتصدير . ويزيد في سهولة ذلك ان الجبلي يسيطر ايضاً على وسائل النقل . وهو علاوة على ذلك يؤمّن استيراد القمح والسكر والرز والبترول والمنسوجات وجميع الآلات المصنوعة التي تحتاجها اليمن . وهذه السيادة المطلقة للرجل الذي احتكر ثقة الامام لها مبررها . فقد استطاع صاحبها ان يُثير اهتمام احمد الجن في كل صفقاته. والمراس الطويل جعله يعرف

معرفة تامة السوق الداخلي والاسواق الخارجية . وزوال حظوته الذي أعلن عنه مراراً كان يُكذَّب دائماً . فالامام لا يستطيع الا بصعوبة زائدة ان يقرر التخلص من هذا المساعد المفيد .

ومع ذلك فإن العلاقات الاقتصادية الجديدة التي اقامتها اليمن في السنوات الاخيرة ، تهدد الى حد ما بتحوير التبادل التجاري اليمني . فالاتفاقات المعقودة مع روسيا السوفياتية والبلدان الشيوعية الاخرى علاوة على المساعدة الفنية والمالية تستهدف تزويد اليمن بكل ما يلزمها من تجهيزات . وعملياً كانت بداية المساعدات السوفياتية - الشيوعية شحنة من الاسلحة الحديثة الى اليمن . وبعد عدة اسابيع انفجرت في الجنوب العربي اعنف اضطرابات عرفها منذ اربعين سنة .

ومهما يكن من امر حقيقة المساعدة السوفياتية فإن الولايات المتحدة لم يكن في امكانها الا ان تقوم بعمل معاكس.وفي شهر ايلول سنة ١٩٥٧ وصلت بعثة اقتصادية اميركية الى صنعاء لتعرض على الامام مساعدة مالية قدرها مليونا دولار للسنة الاولى ، وقد قبل هذا العرض من جانب الامام مع الشكر في البدء ثم اعلن رفضه له فيما بعد ؛ مؤكداً انه «يفضل الاستقلال مع البؤس على التبعية مع الرفاهية » . وهو بذلك يتجاوب مع الرفض المتعالي عام ١٩٤٧ للمساعدة الاميركية ، الذي اطلقه بعنفوان الامام الراحل يحيى ، اذ قال : « افضل أكل العشب على رؤية الاجانب في بلدي يحصلون على امتيازات لاستثمار خيراتها » . ومع ذلك دخلت الدول الكبرى في معركة عنيفة من اجل الامتيازات في اليمن ومن اجل اسواقه . ونتائج انقسام العالم الى كتلتين متناحرتين متنافستين ، لم توفر قمم العربية السعيدة . غير ان اليمن وقد تعلمت مبادىء « الحياد » عرفت كيف تدفع العملاقين الاميركي والسوفياتي الى التنافس .. لتحصد هي الأثمار . ترى هل يحل المبدأ الجديد في السياسة الخارجية محل الانعزالية التقليدية ؟

ليس الامر سهل التأكيد . واذا عدنا قليلاً الى الوراء تذكرنا ان اليمن صاحبة سوابق في حقل الحياد . ففي فترة ما بين الحربين العالميتين، كان الامام يحيى قد قبل شاكراً ، الصداقة الخطرة التي عرضتها عليه كل من ايطاليا موسوليني ، وروسيا السوفياتية لمواجهة الضغط البريطاني على بلاده . وعندما اعتقد الايطاليون الفاشستيون انه اصبح في امكانهم التصرف بشؤون اليمن كما يشاؤون،لم يتردد الامام في ان يبتسم للانجليز. المهم في نظر سادة المملكة اليمنية العريقة ان لا تحتكر دولة مهما عظمت، صداقة اليمن وحدها خوفاً من ان تدعي حمايتها . والابقاء على توازن مستمر هو ضرورة قصوى لتخرج اليمن من انعزالية تجد تفسيرهـــا في التاريخ اكثر مما تجدها في العنفوان الذي يتحلى به جبليو العربية الخضراء

١٠

العزلة اليمنية

في الحجة قطع جلاد الامام في الثالث عشر من نيسان سنة ١٩٥٥ ، بفأسه رأس الاميرين المتآمرين عبد الله وعباس : اما المتآمرون الآخرون فدقت اعناقهم في حفلة عامة . والصور الدامية لهؤلاء المذنبين ، تُباع اليوم في اسواق اليمن ببضعة « بوكشاس » . وفي خطابه الذي القاه في الثلاثين من تموز لمناسبة العيد الكبير صرح الامام بأن عبد الله كان قد اعد مشروعاً يعطي نهائياً محمية عدن للبريطانيين وفتح اليمن امام الاميركيين لامركتها ، وثمناً لهذه الخيانة دفع عبد الله حياته ، وهذا منتهى العدالة . وبعد مضي ثلاثة اشهر منح الامام الامتياز البترولي الذي تحدثنا عنه للشركة الاميركية « شركة التطوير اليمنية » . ووصف عمله هذا بأنه تاريخي . ثم خلال سنة ١٩٥٦ ، توجه الامير البدر ، ولي العهد ، الى كل من الاتحاد السوفياتي والمانيا الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا ، ليعود بحفنة من الاتفاقات والوعود لتقديم المساعدة لبلده . والخبراء الاميركيون ، والسوفيات ، والايطاليون ، والالمان ، والدوليون ،

يفدون تباعاً الى اليمن بأعداد متزايدة : وعادت مشروعات قديمة متواضعة لترى النور . ترى هل سيسمح الامام احمد باستمرار هذا الغزو السلمي لبلده يقوم به أجانب مارقون ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال الهام بالنسبة لليمن يجب أن نشرح تاريخياً سياسة سور الحذر الذي يطوق البلاد لنقدر قيمته وأهميته . واذا فتشنا عن سبب هذا العداء اليمني للاجانب وجدناه في الجهل الذي ساعدت العزلة على ترسيخه ارادياً . وأنا لا اعتقد أن الفلاح اليمني أكثر عداء للاجانب من فلاح « اوكرنيا » رغم ما لديه من أسباب موجبة لذلك . وقد اضطر سكان الجنوب العربي الشجعان أن يدافعوا عن بلدهم الصعب المسالك ضد الكثيرين من الغزاة والطامعين ، مجندين بقيادة أمرائهم الى معارك عنيفة دامية خلال القرون الطوال ، الامر الذي جعلهم شديدي الحذر من كل « أجنبي » .

« والاجنبي » كما يقول المثل اللاتيني القديم عدو : وفي مجتمع لم يرَ من الاجنبي سوى الجشع والطمع والرغبة في الاحتلال والسيطرة لا يُستغرب اذا أصبح الحذر غريزياً في النفس : بل لا يستغرب أيضاً اذا دفع الى اقفال الباب ، وتحريم البلد على اولئك الذين لا ينتظر منهم أي شيء حسن خير : واذا تذكرنا أن هذا البلد مؤلف من جبال شاهقة محاطة بسواحل شبه صحراوية ، صعبة المسالك ، ادركنا لماذا تحولت الانعزالية طريقة حياة ، بل قانوناً ودستوراً في اليمن : حتى أن مندوب هذه الدولة في هيئة الأمم قال مرة إن العزلة التامة توجه سياسة جلالته : ولكن تُرى هل يوجد في العالم مبادىء في ادارة الرجال والثروات ، لا يستطيع الزمن أن يؤثر فيها ويغيرها ؟ لقد فتحت ثغرة كبرى في « السور الكبير » الذي يقفل اليمن وكما حدث بالنسبة لسد مأرب من الممكن أن تؤدي هذه الثغرة الى انهيار السور انهياراً تاماً : ان العلم والتكنيك شيئاً فشيئاً يصدعان ما تبقى من السور ويفسخان الكتلة الصلبة

المتراصة التي كان يستند اليها الائمة الزيديون . وفي ١٩٥٧ م . عقد الامام أول مؤتمر صحفي له ، أمام ثلاثين صحفياً أجنبياً تقريباً . وكان ذلك العمل في حد ذاته هاماً بسبب الزاوية الجديدة التي نظر الى الامور من خلالها . انها علامة التقدم ودليل التطور والاستمرار ومضاعفة الجهود . وهذا الاستمرار والتطور وحدهما يمكنهما ان يعطيا لذلك معنى حقيقياً . وفي هذا المضمار علينا أن لا ننسى البعثات الاجنبية ـ الايطالية والسوفياتية بصورة خاصة ـ في فترة ما بين الحربين ومما يلاحظ ان الامام بهذا الصدد متردد فهو يقدم ويحجم . وبعد أن منح امتيازات ، أو فتح باب العمل امام الاجانب ، تراجع كأنه خائف ، أمام النتائج . وقد مر بهذه التجربة فريق من الاطباء الفرنسيين كان قد قدم الى صنعاء بناء على طلب الامام ولما وصل وجد نفسه ممنوعاً من دخول اليمن بناء لأمر الامام نفسه .

اليمن والمغرب

ان التطور اليمني في نظري يتخطى نطاق الجنوب العربي . ولست أدري اذا كان ذلك شعوراً حقيقياً أو مظهراً خداعاً . واذا قامت اليمن من كبوتها تمكنت بفضل ثرواتها الطبيعية وشعبها النشيط ومركزها الستراتيجي ، في ظرف سنوات ، أن تحول تركيب القوى في الشرق الأوسط . وعن طريق ذلك يمكن أن تتغير بعض المعطيات الدائمة في السياسة الدولية . ان الأمر لا يبدو أكثر استحالة مما كان بالنسبة لليابان ، وبعض القرائن تدفعنا الى التفكير . ان الظروف السياسية والتاريخية هي التي تقرر ذلك . لقد أراد الانجليز سابقاً يقظة اليابان لتفكيك عرى القوة الروسية القيصرية فكان لها ذلك : ترى ما الذي يمنع روسيا السوفياتية من أن تلجأ الى فكرة ايقاظ اليمن للقضاء على الوجود

البريطاني في الجزيرة العربية ؟ ان هذا الافتراض ليس عقيماً غريباً وسنرى لماذا .

ها هي مراكش القريبة تصلح مثلاً لذلك وهي تشبه اليمن في ماضيها القريب تماماً . منذ خمس وأربعين سنة قبل احتلال فرنسا كانت الدولة الشريفية شبيهة باليمن . واليوم هي بلد فتي تزداد أهميته مع الزمن ويفرض نفسه على المسرح الدولي ، وما دامت العربية السعيدة تملك الثروات الرئيسية والحياة المحبة فليس ما يمنع أن تلعب الدور نفسه . ومنذ نصف قرن كانت الظروف نفسها قائمة في المغرب من حيث العزلة ونظام الحكم . ومع ذلك نهضت مراكش بالقرب من جبل طارق . فهل نرى قريباً في جوار باب المندب نهضة يمنية ؟

العداء لبريطانيا ، ركيزة السياسة الخارجية

تشير جميع التصريحات والخطب من قبل المسؤولين في اليمن الى الخوف المستمر من الوقوع في التبعية الاقتصادية للاجنبي ، تحت ستار استثمار الثروات الطبيعية . ويجب الاقرار ان الخوف اليمني ليس مرده الخيال ، والأمثلة التاريخية والمعاصرة على ذلك كثيرة .

ومع ذلك فان المسألةهي اختيار اهون الشرين . وقد بدأ الاختيار وقال كل من يحيى وابنه احمد كلمته ولكنه عاد وتوقف . وبعد والده بمدة طويلة لم يحيد احمد قيد انملة عن مخطط سياسة يحيى ، هذه السياسة التي يمكن اختصارها في الانعزالية القومية والحياد وبعض التعاون والتضامن العربي والاسلامي . والضرورة دفعت الأئمة مع ذلك ، الى القبول ببعض الاحلاف ، وذلك للوصول الى الهدف المنشود الا وهو طرد

البريطانيين من عدن والمحميات التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من المملكة الزيدية . وهذا المطلب مؤخراً بلغ ذروته وهو ليس كلاماً فحسب . بل تحول الى اضطرابات دائمة الحدوث على الحدود الجنوبية مع محمية عدن . وما عدا ذلك تميل اليمن الى الابقاء على حيادها اذ تُقْصر علاقاتها مع الخارج ، على الضروري جداً فقط . وهكذا خلال حكم يحيى الذي دام ثلاثين سنة ١٩١٨ ــ ١٩٤٨ لم تنشأ اية علاقة دبلوماسية دائمة بين اليمن والدول الاخرى. وفي سنة ١٩٥٣ أيضاً قال الامام احمد في عيد الجلوس ما يلي : « انني أسمع أحياناً بعض الناس يجدفون قائلين ان اليمن متأخرة جائعة معدمة انا لا أنكر الحقيقة ، ولكنني اود أن أسأل هؤلاء المغفلين اذا كانوا يفضلون التقدم في نطاق العبودية التي فرضها عليهم المستعمرون . » ومع الزمن لا شعورياً تغيرت نظرة سادة اليمن شيئاً فشيئاً . اذ أن القضية الوحيدة التي تهم اليمن وهي استعادة المقاطعات التسع ــ تستلزم اجراءات ، غير المفاجآت والغزوات . وقد وجد الامام اول حليف له في شخص عبد العزيز بن سعود على أثر حرب عسير القصيرة ومعاهدة « ابها » التي تلتها . وفي عام ١٩٣٧ انضمت اليمن الى ميثاق الاخوة العربية والتضامن الذي عُقد قبل ذلك بسنة بين السعودية والعراق . وبما ان الامام يحيى قد كلف السعوديين رعاية مصالحه في الخارج فقد رأى نفسه مرتبطاً تقريباً بالسياسة السعودية الخارجية التي كانت تهدف في ذلك الوقت ، بصورة خاصة الى الاحتجاج على سياسة البريطانيين الغامضة في فلسطين ، هذه السياسة التي كان فيها الكثير من الدوافع لاغضاب العرب والصهاينة على السواء . وفي المؤتمر العربي الذي عُقد في الاسكندرية عام ١٩٤٤ لتأسيس الجامعة العربية ، اكتفى الامام بارسال مراقبين فقط . وفي الثاني والعشرين من آذار سنة ١٩٤٥ ، مع ذلك ، انضم الى جامعة الدول العربية الى جانب العربية السعودية وسوريا ومصر والاردن والعراق ولبنان . وأما

ليبيا والسودان وتونس والمغرب فقد انضمت فيما بعد .

ان دخول اليمن في جامعة الدول العربية يُعتبر نقطة تحول اذ ان هذا الحدث قد منح الامام مساندة هيئة دولية كانت تنقصه من أجل تحقيق مطالبه . وقد تلا ذلك الدخول مباشرة توقيع ميثاق الصداقة المصرية اليمنية (٢٢ آب سنة ١٩٤٦) . خلال دورة الجامعة الثالثة في آذار ـ نيسان سنة ١٩٤٦ جرت مفاوضات بين مصر واليمن انتهت بالموافقة على اقامة علاقات دبلوماسية مع اليمن ، طبقت عملياً عام ١٩٥١ في عهد الامام احمد . وبناء لمشورة ابن سعود قدم الامام طلب انضمام الى هيئة الامم المتحدة ، وفي ايلول سنة ١٩٤٧ قبل هذا الطلب . واسوة بموقف الدول العربية الاخرى رفضت اليمن قرار التقسيم في فلسطين ؛ لذلك دخلت رسمياً الحرب ضد اسرائيل في الخامس عشر من أيار سنة ١٩٤٨ غير ان اعلان الحرب بقي شكلياً ، وما زال البلدان في حالة حرب من حيث المبدأ لأنه لم يتم توقيع أية هدنة بينهما بعد الحرب العربية ـ الصهيونية . في منطقة الشرق الأوسط التي تثور كالبركان ، تقلص نفوذ بريطانيا في كل مكان . وكانت المفاوضات المصرية ـ البريطانية من أجل الجلاء فرصة مناسبة لليمن كي تعلن تضامنها مع مصر ضد بريطانيا . ثم جاء توقيع حلف بغداد عام ١٩٥٤ ليشد أواصر التضامن بين أعداء السياسة البريطانية ، مصر وسوريا والعربية السعودية واليمن ؛ وقد ظهرت نتيجة ذلك لدى توقيع ميثاق جدة في الحادي والعشرين من نيسان سنة ١٩٥٦ . وهو اتفاق عسكري ثلاثي بين مصر والسعودية واليمن ، يجعل جيوش الدول الثلاث تحت قيادة مصرية موحدة . وكان هذا الاتفاق فعلاً بمثابة صفعة مؤلمة للندن كما أشارت لذلك صحيفة التايمز بمرارة في ٢٣ نيسان سنة ١٩٥٦ . غير أن توقيع ميثاق جدة كان له بالاضافة الى ذلك نتائج أخطر بكثير مما سبقه من المواثيق العربية ، لأن الاتحاد السوفياتي أفاد من هذا التطور في الاحداث ليبرز عن طريقه

على مسرح السياسة الدولية في الشرق الاوسط .

الدبلوماسية الدولية

في عام ١٩٢٨ ، بواسطة ممثلين مسلمين ، تسلل الاتحاد السوفياتي الى اليمن اذ عقد معها ميثاقاً للتجارة والصداقة . في ذلك الوقت كان النشاط الايطالي يقلق اكثر دول البحر الاحمر ، من سنة ١٩٢٧ حتى قبيل الحرب العالمية الثانية ، كانت ايطاليا الفاشستية تنعم بمركز ممتاز في الجنـــوب العربي . وعلى الرغم من العدوان الفاشيستي على الحبشة والتوتر الجزئي الذي نتج عنه ، نجح موسوليني ، عام ١٩٣٧ ، في عقد معاهدة ايطالية — يمنية جديدة ، اعترف الامام فيها بالسياسة الايطالية في الحبشة . ومع ذلك لم يستطع العملاء الايطاليون ان يجروا اليمن الى جانبهم في الحرب العالمية الثانية . وبعد الحرب عادت عدة بعثات ايطالية الى الظهور في الجنوب العربي . والاطباء الذين ارسلهم الدوتشي بقوا في اليمن حتى وصول البعثة الطبية الفرنسية .

وفي سنة ١٩٣٨ حصلت روسيا السوفياتية على موافقة الامـام ، في تجديد معاهدة التجارة والصداقة بين اليمن والاتحاد السوفياتي . ولكـــن التوتر الدولي والحرب قضيا على هذه العلاقات الطيبة . والجهود المستمرة التي قام بها السوفيات من أجل اعادة هذه العلاقات لم تصل الى نتيجة إلا عام ١٩٥٦ ، حيث نجحت نجاحاً منقطع النظير . والولايات المتحدة بدورها أرسلت بعثتها الاولى الى اليمن عام ١٩٤٧ بقيادة الكولونيـــل ادي . ويجب الاقرار ان المصالح الاميركية المتزايدة في الجزيرة العربية لم تعد تسمح للخارجية الاميركية بأن تتجاهل اليمن ، وقد وصلت البعثة الاميركية الى صنعاء ومخططها يتضمن أمرين : هما الاعتراف رسميـــاً باستقلال المملكة المتوكلية اليمنية استقلالاً تاماً ناجزاً ، وعقد معاهدة

صداقة وتجارة مع الامام بشكل بسيط في البداية . وقد اعترضت بعض الصعوبات المفاوضات ، ثم بفضل تدخل القاضي راغب بك ، وقع الاتفاق اليمني الاميركي في الرابع من ايار سنة ١٩٤٦ لاجل غير محدود ، على أمل ان توضع فيما بعد معاهدة اكثر تفصيلاً . وعلى أثر الاتفاق أمكن اقامة علاقات تجارية بين البلدين . أما العلاقات الدبلوماسية فقد تأخرت حتى عام ١٩٥١ اي نفس التاريخ الذي أقيمت العلاقات فيه مع بريطانيا ومصر . وفي عام ١٩٥١ ايضاً حصلت بعثة فيليبس الاميركية للتنقيب عن الآثار على اذن من الامام للتنقيب في منطقة مأرب . ولكنها بعد ان قامت ببعض التنقيبات الاولية اضطرت لأن توقف أعمالها تاركة كل ما لديها من تجهيزات . وما ذلك الا لأن السيد فيليبس لم يكن يهتم بالآثار القديمة قدر اهتمامه بالبترول . وفي هذا المجال بالذات كانت ذروة نجاح النفوذ الاميركي على يد شركة السيد جورج الن البترولية التي حصلت في تشرين الثاني سنة ١٩٥٥ ، من الامام على امتياز للتنقيب مدته ثلاثون سنة . ورئيس شركة « التطوير اليمنية » هذه الذي هو في الوقت ذاته رئيس « الشركة الفولاذية الجمهورية » صديق مقرب ومستشار مالي شبه رسمي لرئيس الولايات المتحدة الاميركية . ويمكن ان يُعزى الحصول على الامتياز الى البعثة الاميركية الاقتصادية التي قصدت صنعاء من أجل ان تعرض على الامام مساعدة مالية من قبل الرئيس ايزنهاور . ترى أليس هذا شبيهاً بما فعلته الأرامكو التي دفعت حكومة واشنطن الى منح حكومة الرياض مساعدة مالية ، من أجل تقوية مركزها في العربية السعودية .

بعد محاولة الانقلاب الفاشلة ١٩٥٥ فتحت صفحة جديدة بالنسبة للدبلوماسية اليمنية . لقد سبق للأمير عبد الله ان ألحّ بشدة على والده ثم على أخيه من أجل توثيق الروابط وتوسيع نطاقها بين اليمن والخارج لا سيما الولايات المتحدة الاميركية وانجلترا . ومن أجل ذلك عيّن على

رأس وفد اليمن الى هيئة الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٧ مما أتاح له ان يزور عدة أقطار أعجب بتقدمها وحضارتها . وعلى العكس منه كان أخوه الأكبر حسن عدو كل اصلاح . وبوصفه نائباً للامام في صنعاء كان ذا حظوة زائدة لدى الاسياد . ويعتبر الرجل القوي في الامامة ، وزعيم حزب المحافظين فيها . أما عباس الأخ الثالث المكلف بأمور القبائل فقد اختار ان يقف الى جانب عبد الله ويقاسمه آراءه . لقد ساء هؤلاء الأمراء الثلاثة أخوة الامام ان يروا أخاهم يُعلن عام ١٩٥٤ ابنه محمد البدر ولياً للعهد فتمردوا وكان ثمن هذا التمرد الفاشل رأسي عبد الله وعباس . عندئذ عاد حسن من رحلة في المانيا فعهد اليه بتمثيل بلاده في مؤتمر رؤساء الحكومات العربية المنعقد في القاهرة . ثم جاءته الأوامر لتتابع طريقه الى شرقي آسيا كي يمثل اليمن في مؤتمر باندونغ في نيسان ١٩٥٥ . وفي شهر حزيران ، كان الأمير حسن في طوكيو حيث دعا الميكادو الى زيارة اليمن ثم وقع بالحروف الأولى معاهدة صداقة يابانية – يمنية . ومن هناك توجه الى سان فرنسيسكو ليشارك في احتفالات ذكرى مرور عشر سنوات على تأسيس هيئة الأمم المتحدة . ويبدو من اعطاء الامير حسن هذه الفرص للاتصال بالاوساط الخارجية ان الامام احمد يرمي الى هدفين هما ابعاد منافس خطير من امام ابنه البدر في الداخل واضعاف معسكر اعداء الاصلاح والتطور . وتدعيماً لمركز ولي العهد عين الامامُ الاميرَ البدر الذي اعلن مراراً انتهاء عهد الانعزالية نائباً لرئيس الحكومة ووزيراً للخارجية في الحكومة التي تألفت في آب سنة ١٩٥٥ ، ومنذ ذلك الحين والامير البدر يلعب دوراً تتزايد اهميته مع الايام ، في تاريخ اليمن الحديث .

النفوذ السوفياتي الشيوعي

وصل ولي العهد اليمني الى ذروة الشهرة العالمية دفعة واحدة باستجابته

الى دعوة بولغانين لزيارة موسكو في حزيران سنة ١٩٥٦ . والتصريح الذي اعلنه عند اقلاعه من القاهرة في الحادي عشر من حزيران جعل الكثيرين من المسؤولين في الدول الغربية وغيرها يقطبون حواجبهم لقد قال : « ان الاتحاد السوفياتي هو الصديق المخلص للبلاد العربية جميعاً » لقد حاول الاتحاد السوفياتي عبثاً خلال سنوات متعددة ، ان يعيد ربط علاقاته مع اليمن على البحر الاحمر ، والسفير السوفياتي في القاهرة ، كيسيليف هو الذي استطاع ان يذلل جميع العقبات وينجح في مهمته . لقد بدأت المفاوضات المتدرجة في القاهرة ، عندما صعق العالم بنبأ تزويد مصر بأسلحة سوفياتية . وبعد شهر واحد من ذلك التاريخ في الثلاثين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ وقع ميثاق الصداقة السوفياتية اليمنية بالحروف الاولى : وحتى قبل الموافقة عليه رسمياً توجهت الى اليمن بعثة خبراء سوفيات ثم تبعتها بعثات تشيكية وبولونية . انها حقبة الموجة الشيوعية العارمة باتجاه العالم العربي بقيادة السيد شبيلوف الذي تسلم وزارة الخارجية السوفياتية . في القاهرة اظهر السيد كسيليف نشاطاً بارزاً : وبعبارات شبه صريحة ، وعد اليمن بمساندة الاتحاد السوفياتي لها في نزاعها مع بريطانيا من اجل المحميات . وعندما وقع الامام احمد في الحادي والعشرين من نيسان سنة ١٩٥٦ ميثاق جدة الثلاثي (مصر السعودية اليمن) تلقى من السفير السوفياتي دعوة رسمية لزيارة الاتحاد السوفياتي فقبل الدعوة دون تردد ، ولكنه اعلن بأن ابنه وولي عهده ووزير خارجيته محمد البدر سينوب عنه في هذه الزيارة : وفي فجر يوم من ايام حزيران الدافئة طار الامير البدر من مطار القاهرة الى موسكو لينتقل من هناك الى براغ فبرلين الشرقية . وهو اول مسؤول عربي عامل يتجه الى الاتحاد السوفياتي ، بعد مضي اقل من شهرين على توجيه الدعوة اليه .

وبعد أن قابل المسؤولين السوفيات ، وقع الأمير البدر بياناً مشتركاً

مع المارشال بولغانين ، يتعهد بموجبه الاتحاد السوفياتي بمساعدة اليمن على تطوير اقتصادها بتحقيق مشروعاتها العمرانية وتزويدها بالتجهيزات السوفياتية اللازمة لذلك . كما اتفق ايضاً على إقامة علاقات دبلوماسية ثابتة بين البلدين . وعهد الى كل من سفيري الاتحاد السوفياتي واليمن في القاهرة بأن يمثل بلده لدى البلد الآخر : ومن ثم توجه الأمير البدر الى تشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية حيث زار المصانع العديدة وقابل المسؤولين .

وفقاً لتصريحات الامير البدر والشيخ الجبلي المختلفة تشير الاتفاقات المعقودة الى ان الاتحاد السوفياتي سيقوم بمد شبكة طرقات وبناء موانىء في اليمن ، يستوفي نفقاتها بعد عشر سنوات باسعار تكون اقل ٣٠ ٪ من الاسعار العالمية . كما ان الاتحاد السوفياتي مستعد لتمويل مشروعات التطوير الاقتصادي ، وقد وعد بتقديم كل مساعدة فنية لازمة لذلك . أما تشيكوسلوفاكيا ، من جهتها فقد تعهدت بانشاء مصنع للترابة في تهامة ، وتزويد اليمن بكل ما يلزمها من خبراء لتصنيعها . كما اعلنت استعدادها لقبول الطلاب اليمنيين في جامعاتها . والمانيا الشرقية بدورها ابدت رغبتها في انشاء مصانع للترابة والزجاج ، والاثمار المجففة ، ودباغة الجلود ، على اساس المبادلة التجارية . وتعهدت موسكو وبرلين الشرقية ، علاوة على ذلك ، ببناء ميناء حديث في الحديدة أو لحية ، يكلف اربعة ملايين جنيه استرليني . وفي هذه المناسبة نذكر ان ميناء الحديدة كان قد دمر بالقنابل البريطانية عام ١٩١٧ مما وضع تجارة اليمن الخارجية تحت رحمة الانكليز سادة عدن ، المرفأ الوحيد الصالح في المنطقة مدة طويلة . وظلت الحال كذلك حتى سنة ١٩٥٦ عندئذ جرى تنظيف ميناء مخا من الرمال واصبح في امكانه ان يستقبل السفن الصغيرة ومن بينها سفن « الشركة البحرية اليمنية » . ان بناء الموانىء وانشاء الطرقات اذا اضيف اليها اتساع آفاق فكر المسؤولين ،

قد يؤدي الى قلب الحياة في اليمن رأساً على عقب .

علاوة على الاعتراف بجمهورية الصين الشعبية في آب سنة ١٩٥٦ ، كان من نتائج التقرب اليمني السوفياتي البين اشتداد التوتر في العلاقات الانجليزية – اليمنية. ومنذ شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ وصحافة الجنوب العربي في محميات عدن ، تنشر المعلومات والتفاصيل الوافية عن السفن المحملة بالأسلحة لحساب اليمن من المعسكر الشرقي . وبعد مضي عدة اشهر اضطرت وزارة الخارجية البريطانية الى الاعتراف تحت الضغط البرلماني بأن الدول الشرقية كانت قد شحنت الى اليمن « ست او سبع سفن محملة بالاسلحة من كل نوع » . كما انهم طيارون اميركيون يعملون في شركات خاصة بنقل اسلحة سوفياتية الى اليمن ، والبرهان على حسن وفادة الاسلحة أعطي في كانون الثاني وشباط سنة ١٩٥٧ عندما وصلت اضطرابات الحدود بين اليمن والبريطانيين الى حد من الخطورة لم تصله من قبل .

وفي تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ ادى التدخل الانجليزي – الفرنسي الاسرائيلي المسلح على مصر الى الالتقاء العجيب في موقف كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية . وآنذاك شجب العالم اجمع (العدوان الاستعماري) البريطاني – الفرنسي ، ولم تواجه بريطانيا في كل تاريخها ساعات احرج من هذه الساعات ، ولم تهبط سمعتها يوماً الى احط مما وصلته على اثر العدوان. ولالهاء العالم عن مذبحة المجر قرر الاتحاد السوفياتي ان يشجع اي نزاع في اية منطقة كانت . ولذلك لاقى احياء النزاع اليمني – البريطاني القديم ، تشجيعاً وتهليلاً من قبل المسؤولين السوفيات . ولم يفت المراقبين السياسيين ان يلاحظوا ان المشاورات بين سفيري اليمن والاتحاد السوفياتي في القاهرة كانت شبه يومية في الساعات التي كان التوتر قد بلغ فيها الذروة على حدود المحميات .

اشتداد النزاع البريطاني – اليمني

بدأت الاحداث أول الامر على الحدود كأنها عادية ، كتلك التي كانت تقع ، متفاوتة الخطورة منذ أربعين سنة . وحسب الحالة التقليدية المعروفة حصل اشتباك بين اليمنيين ومرتزقة المحميات . ولما تقدم اليمنيون – من متطوعين وقوات نظامية صدرت الأوامر لسلاح الجو الملكي البريطاني بقصفهم وردهم على أعقابهم ، وبسرعة في أوائل كانون الثاني سنة ١٩٥٧ صدرت الصحف في مختلف أنحاء العالم مليئة باحتجاجات الامام على بريطانيا لقصفها المدن اليمنية (المحميات جميعها في نظر الامام مدن يمنية) وقُدمت شكوى الى هيئة الامم المتحدة ونظم عمل عربي مشترك في واشنطن واتسع نطاق المعارك على الحدود حتى انها امتدت الى مناطق جديدة . وفي ظرف اسبوع فقط ساءت الحالة الى درجة اضطرت السلطات البريطانية الى ان تسارع الى ارسال تجدات عسكرية جديدة بطريق الجو الى عدن . وأعلنت وزارة الخارجية البريطانية أن الوضع «اخطر» مما يظن . وفي الثالث من كانون الثاني، صرح الامام ان بريطانيا قد أخلت بعهودها مع اليمن وانه نتيجة لذلك، يعتبر نفسه في حل من كل عهد تجاهها فرضته معاهدتا سنة ١٩٣٤ و ١٩٥١ . فأجابت لندن أن هذا الالغاء من جانب واحد غير مقبول . واصبحت قاعدة عدن العسكرية بعد ان ارسلت اليها امدادات كثيرة مقر القيادة العامة للقوات البريطانية في الجزيرة العربية . وعلى الحدود استمرت العمليات الحربية براً وجواً حتى شهر شباط . وفي التاسع من هذا الشهر دعا الامام ممثلي الصحف الاجنبية الى اول مؤتمر صحفي له اعارته البرافدا واذاعة موسكو اهتماماً خاصاً . وفيه اعلن على الملأ اموراً كان يكتفي فيما مضى بالاشارة اليها . وهذه المرة نقلت القضية الى

الصعيد العالمي .

لقد استطاعت بريطانيـــا مرة اخرى ، عن طريق استعمال العنف الشديد ، ان تنتصر على الروح النضالية اليمنية ولكن النزاع اثر ذلك صار اقرب ما يكون الى التدويل ، هدف اليمن الواضح . وفي بيان رسمي صادر في الثالث والعشرين من شباط ، اعلنت الحكومة البريطانية انها تدرس « الاجراءات اللاحقة الواجب اتخاذها لمواجهة الخطر اليمني المتزايد » وفي نفس الوقت عرضت لندن على الامام ، عقد مؤتمر لحل المشكلات المتعلقة بين البلدين . ولكن الحكومة اليمنية افهمت بريطانيا مرة جديدة ، بأنها لا تعترف في اية حال من الاحوال بشرعية الوجود البريطاني في « اليمن المحتلة » . ولذلك فالمفاوضات بهـذا الشأن لن تكون مجدية . وبالنسبة للمسؤولين اليمنيين تشكل اراضي « المقاطعات التسع » القديمة جزءاً لا يتجزأ من اليمن ، احتلتـه القوات الاستعمارية البريطانية : وكذلك جزيرة قمران ، مقابل صليف في البحر الاحمر كانت موضع نزاع بين الطرفين . فهي في الاصل محجر صحي دولي قديم للحجاج ، ولما جاءت بريطانيا الى المنطقة ربطتها اداريا بمستعمرتها في عدن عام ١٩٤٩ . ثم منحت امتياز التنقيب عن البترول فيها الى احدى الشركات من تابعات شركة البترول البريطانية . وقد اثار هذا الاجراء الاخير حفيظة المسؤولين اليمنيين واحتجاجاتهم ، فأعلنوا عزمهم على تقديم شكوى الى محكمة لاهاي الدولية .

وخلال سنة ١٩٥٧ ، بدا ان التوتر على الحدود قد خفت حدته ، ولكن الاشتباكات لم تنقطع نهائياً . وبفضل وجود طائرات « الفينوم » التابعة لسلاح الجو الملكي هناك الى جانب قوات المدفعية الثقيلة التي نقلت على جناح السرعة ، تمكن البريطانيون من حصر نطـاق الاشتباكات . واثناء زيارة الامير بدر الى لندن بين الحادي عشر والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ ، استطاعت الخارجية البريطانية وحكومة لندن ان

تقيسا المسافة المتعذر اجتيازها ، والفاصلة بين الموقفين البريطاني واليمني. وكان على لنـــدن ان تعلم ايضاً بأن الوقت يعمل لصالح اليمن ، وبأن النفوذ السوفياتي لا يمكن ان يعمل إلا ضد بريطانيا ومصالحها في الجنوب العربي.

« التغيّب » الفرنسي

ليس في موقف فرنسا السلبي من النزاع البريطاني اليمني ما يبرّره مطلقاً في الآونة الاخيرة . لقد سعت اليمن في سياستها الخارجية بصورة خاصة الى كسب مؤيدين جدد لقضيتها ضد بريطانيا . وحاولت مراراً ان تحصل على السلاح من فرنسا . وفي ايلول سنة ١٩٥٧ ، اضطرت فرنسا الى ان ترفض طلب اليمن تزويدها بالاسلحة الخفيفة والذخائر ، بعد ان اجرت مشاورات لذلك مع بريطانيا وعجزت عن الحصول على وعد من الامام بعدم استخدام هذه الاسلحة ضد الانجليز. بعد شهرين من ذلك التاريخ زودت بريطانيا بطريق الجو تونس باسلحة كانت فرنسا قد رفضت ان تزود اليمن بمثلها . ومع ذلك اذا صرفنا النظر عن هذه السياسة التي يمكن وصفها بأنهـــا هجومية ، تستحق اليمن اهتماماً اكبر من جانب فرنسا . ان البلد الصغير المليء بالآمال في حاجة الى اطباء وفنيين خبراء من كل الميادين ، والى مساعدات اقتصادية ومالية غير مشروطة والعمل المتجرد وحـــده يترك صداه البعيد المستحب على المدى الطويل ويعطي نتائج طيبة ، لأن حياة الشعوب والبلدان لا تقاس بالحياة كحياة الناس.

لقد سبق لنا ولاحظنا ان النشاط الضئيل للبعثة الطبية الفرنسية قد عاد على فرنسا برأسمال كبير من الاعجاب والتقدير والعطف ، لم تستطع اخطاؤنا في المغرب العربي ان تبدده . إنها انصع صفحة في تاريخ العلاقات الفرنسية اليمنية . وهي وحدها تبقى في الاذهان . وقد شاء

القدر ان يكون اول اوروبي في العصور الحديثة سمح له ان يدخل العربية السعيدة فرنسياً وهو طبيب جراح في البحرية استدعاه الامام عام ١٧٠٩ ليجري له عملية في اذنه . وفي عام ١٩٤٦ طلب الامير احمد ولي العهد الامام اليوم طلب الى القنصل الفرنسي في عدن، ارسال طبيب نسائي للاعتناء بإحدى نسائه فجاءت الدكتورة سوزان سيرين ، الطبيبة في مستشفيات الامراض النفسية وعادت من اليمن بعد اقامة ستة اسابيع من اجل ان تهيء بعثة طبية فرنسية تُرسل الى هناك . وفعلاً إثر ذلك تبعتها بعثة فرنسية قامت بمهمتها خير قيام في اليمن . والطبيب اللواء ريبوليه الذي مات بمرض اصابه خلال عمله هناك ترك في اليمن ذكرى عطرة لاخلاص فريد . وتجرده كان قد اكسبه ثقة الامام الذي عهد اليه ببناء وتجهيز مستشفى تعز الجديد . وبعد زوال ريبوليه ، تتابع امرأة شابة ، طبيبة وباحثة سلالات وحدها الرسالة الصحية الانسانية في اليمن وهي السيدة فايان التي تعمل بدون كلل على متابعة عمل سلفها الانساني على الرغم من النقص الظاهر في الادوية والامكنة اللازمة لاقامة المرضى .

ان الاجور والتسهيلات المقدمة من الحكومة اليمنية الى الاطبـاء الفرنسيين ، لا تكفي لترغيب آخرين في الذهاب الى اليمن . ولكن اين هم المسؤولون عن دبلوماسيتنا . انهم لم يحاولوا القيام بجهد اكثر لمساعدة الامامة . ان فرنسا هي ايضاً اقرب جار لليمن في الصومال . وفي جيبوتي ، كثير من المقيمين اليمنيين مما يكسب القضايا اليمنية اهمية خاصة . كما ان ضباطاً وموظفين فرنسيين ، يجتازون مضيق باب المندب مراراً للذهاب الى مملكة الامام وهنـاك تجار ومهربون يعملون بين الشاطئين اليمني والصومال الفرنسي .

اننا نلاحظ ان سلبية فرنسا لا تفسير لها تجاه اليمن مع العلم بأنها بعد ان اعترفت باستقلال هذه البلاد عقدت مع الامام معاهدة صداقة في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٩٣٦ ، وفي عام ١٩٤٦ عهد الى

سفير فرنسا في العربية السعودية بأن يمثل بلاده لدى حكومة صنعاء : وبهذه الصفة كان يقوم بزيارة كل سنتين طيلة المدة التي كان فيها تمثيل دبلوماسي لفرنسا في جدة . اما مركز قنصل فرنسا في عدن فقد شغله شخص ديناميكي مدة طويلة ، هو السيد ستيبانوف هارتل ، الذي كان يعرف جيداً شؤون الجنوب العربي . ولا نعلم فيما اذا كان ذلك هو الذي جعل الخارجية الفرنسية تتخذ موقفاً فيه اقدام اكثر . ان اليمن التي تستيقظ اليوم ، والعربية السعيدة التي تفيق من سياستها في حاجة ماسة الى مساعدة متجردة ، غير مشروطة ، طبية وفنية واقتصادية ، وفرنسا هي افضل من يتوجب عليه القيام بهذه المهمة . واذا كانت الانعزالية اليمنية نفسها هي التي تدفع هذه الدولة الى البحث عن توازن عملي بين مختلف الدول ، فإن ذلك يجب ان يحمل فرنسا على ان تلعب دوراً في الجنوب العربي . ان اقدم الممالك العربية استقلالاً واكثرها اقفالاً هي في طريقها الى فتح ابوابها لاستقبال المساعدات الاجنبية المختلفة. وفي هذا التنافس المفتوح تحتاج اليمن ايما حاجة الى حلفاء مسالمين الا وهم الخبراء .

١١

محمية عدن

ان ما يسميه البريطانيـــون محمية عدن هو في الواقع مجموعة من اراض متداخلة ، متباينة المساحة متشابهة النظم السياسية تقريباً . والوجود البريطاني هو الذي يمثل هنا عامل التجانس بين مجموعة امارات ، وقبائل ، وعشائر ، تعيش في الاكتفاء الاقتصادي والفوضى السياسية . والتجانس الظاهر في العنصر والدين واللغة بين سكان هذه المنطقة لم يمنع استمرار الانقسامات التي كان من اولى نتائجها هذا الصراع الداخلي المستمر ؛ وعندما توصل ضابط الاستخبارات البريطانية ، هارولد انغرام ، عام ١٩٣٧ ، الى توقيع اتفاق سلم يحمل اسمه ، كان عليه ان يجمع في منطقة حضرموت ، وحدها اكثر من الف واربعمائة توقيع ؛

وتبلغ مساحة محمية عدن حوالي ثلاثمائة الف كيلومتر مربع ، اي ما يعادل على الاقل مساحة شمالي الجزائر . بين رأس الشيخ سعيد على باب المندب ورأس ضربة علي على حدود صفار . وتمتد الاراضي التي تسيطر عليهـــا بريطانيا على طول الف ومائتي كيلومتر من الشواطىء

القاحلة المجدبة .. تحدها في الداخل من الغرب الجبال اليمنية والربع الخالي من الشمال الشرقي والجار السعودي بعيد ، لأن رمال الربع الخالي الشاسعة تفصل بينهما ، اما الجار اليمني فعلى العكس من ذلك قريب ويثبت وجوده في كل وقت :

برزت محمية عدن رسمياً من الوجهة السياسية بناء على مرسوم ملكي صادر في الثامن عشر من آذار سنة ١٩٣٧ ، وهي مقسمة ادارياً الى قسمين ، تجاوباً مع بعض الحقائق التاريخية غير الواضحة : اولا المحمية الغربية (مئة الف كلم مربع) وتتألف من اراض كانت معروفة فيما مضى بالمقاطعات التسع وما زال ائمة اليمن يطالبون بها حتى اليوم بوصفها جزءاً لا يتجزأ من اليمن . والمحمية الشرقية (مئتا الف كيلومتر مربع) وتضم حضرموت ومقاطعتين اصغر منها هما الواحدي ومهره . واما جزر سوقطرة ، وبروذر في المحيط الهندي فتتبع سلطنة مهره : والقسم الثالث في التقسيم الاداري البريطاني ، هو مستعمرة التاج ، ولا تمثل هذه سوى جيب صغير في المحمية الغربية وترفع توابعها بريم وقران في البحر الاحمر ، وكوريا موريا مساحة مستعمرة التاج الى مائتين وسبعة كيلومترات مربعة . انها مجرد محطة تزوّد السفن المسافرة من الهند واليها بالفحم ، وقد وجدت عدن نفسها منذ اول نيسان سنة ١٩٣٧ مستعمرة تابعة للتاج البريطاني ، في الوقت الذي وُلدت فيه المحمية التي حملت الاسم نفسه . وحاجة بريطانيا الى عدن من اجل تأمين مواصلاتها ، هي التي دفعت الانجليز الى تنظيم الداخل وربطه بالمستعمرة : وحتى اليوم ما زالت مستعمرة عدن العاصمة الادارية والاقتصادية للمحمية كلها ، والتنقيب المستمر عن البترول يعطيها قيمة جوهرية ذاتية تضاف الى اهميتها الستراتيجية والاقتصادية .

المستعمرة الستراتيجية

تتألف مستعمرة التاج ، في الجنوب العربي من ، رأسين بركانيين يقفلان كالكماشة جوناً كبيراً ، ويتصلان ببعضهما بواسطة حزام ضيق من الاراضي . وعدن في حد ذاتها تقوم على الرأس الشرقي حيث يوجد المرفأ ووراءه في الداخل مطار خورمكسار . اما عدن الصغيرة ، في الجهة المقابلة ، فكانت لا تضم سوى أكواخ بعض الصيادين ، حتى أنشئت عليها مصفاة بترولية كبرى افتتحت في عام ١٩٥٤ . وفي الداخل تشكل واحة الشيخ عثمان ، وهي قرية يسكنها بعض ابناء البلاد المحليين ، دائرة بلدية ثالثة . والمجموع ، مع بريم وقمران ، يحكمه مفوضون يخضعون الى سلطة حاكم تعينه وزارة المستعمرات ، وهو في الوقت نفسه حاكم المحميات . وميناء عدن ذو ادارة مستقلة ، كما ان مطار خورمكسار الذي يضم قاعدة جوية هامة ، يعود بادارته الى سلطات سلاح الجو الملكي البريطاني .

كانت قرية عدن قبل الاحتلال البريطاني عام ١٨٣٩ تابعة لسلطان لحج ، وكانت تعد حوالي خمسمائة نسمة . وفي عام ١٩٣١ بلغ عدد سكان عدن واحداً وخمسين الفاً ، وارتفع الى مئة الف عام ١٩٥١ ، وهذه الزيادة المستمرة السريعة في السكان ، هي النتيجة الطبيعية للازدهار المتزايد في المستعمرة اثر شق قناة السويس : والحياة الناشطة في عدن ترتبط تقليدياً بمينائها ، وهو الثغر الوحيد على شواطىء الجزيرة العربية الجنوبية . وقد جعلت منه منشآت تزويد الفحم أنشط المحطات البحرية عملاً في العالم بأرقام سنوية تساوي أرقام مرفأ ليفربول ، والحركة

في ازدياد مستمر . وأتاحت مصفاة البترول التي أنشأتها شركة البترول البريطانية هناك عام ١٩٥٤ والتي يأتيها النفط الخام من مناطق الخليج القريبة ، بيع المحروقات للسفن البحرية بأفضل الشروط . كما ان الحركة السياحية فتحت سبل العيش أمام طائفة كبرى من أصحاب الحرف . وهناك ايضاً خمسة عشر في المائة على الاقل من السكان يعملون في الميناء .

وإبان أزمة السويس التي نجم عنها اقفال القناة من تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ الى ايار سنة ١٩٥٧ تردت مستعمرة عدن نفسها بسرعة في حالة اقتصادية مفجعة ، غير ان اعادة فتح الطريق البحرية البالغة الاهمية ، أعاد لها ازدهارها وحيويتها .

وهذه المحطة البريطانية بمرفأها الحر مركز لتجارة العبور واعادة التصدير ، تتم بواسطتها جميع المبادلات العائدة الى اليمن والمحمية . وهي ترتبط ، لفقدان الزراعة فيها ، بالخارج من أجل مواردها الرئيسية الغذائية ، كالارز والطحين والسكر ، التي تستوردها الحكومة . ويعمل فيها أرباب حرف وصيادون ، وبعض بناة المراكب ، من أجل السوق المحلية . وفيها ملاّحات متعددة تعطي الملح ، المنتوج الوحيد في الصادرات المحلية . وأهمية عدن تكمن في الدرجة الاولى ، كسنغافورة وجبل طارق ، في مركزها الستراتيجي القابض على الشريان الحيوي للمواصلات بين الجزر البريطانية وامبراطوريتها العالمية واتحاد شعوبها . ان المستعمرة البريطانية الصغيرة في الجنوب العربي تقف كالحارس الذي يصون الثروة البريطانية ، الى جانب جبل طارق ، ومالطة ، وهونغ كونغ ، وسنغافورة ، وصخرة بريم المحصنة ، ترى ، كجبل طارق والسويس ، القوافل التي لا تنقطع من حاملات النفط ، تمر أمامها ناقلة الى المملكة المتحدة وسائر انحاء اوروبا السائل الثمين المستخرج من رمال الجزيرة العربية .

ولدى وصول ناقلات النفط تأخذ مصفاة عدن حصتها . وبطاقتها

السنوية التي تبلغ خمسة ملايين طن تزود بالبترول الاسواق القريبة في افريقيا الشرقية ، والمحيط الهندي حتى سيلان : وعلى سبيل التفصيل نقول ان مليوني طن من المحروقات المكررة سنوياً ينقلان في خط بحري الى منشآت التموين في الميناء الكائن في الجهة الثانية من الجزر ، واربعمائة الف طن من بنزين الطائرات تُعطى للسلاح الجوي الملكي : وقد دعت الضرورة مؤخراً الى زيادتها بسرعة لتغطية حاجات طائرات القاعدة التي زاد عددها مرتين عام ١٩٥٥ وعام ١٩٥٧ : وذلك لأن عدن بعد ان جعلت مقر القيادة العامة الجنوبية للقوات البريطانيـة في الشرق الاوسط ، اصبحت المستعمرة البريطانية في أوائل عام ١٩٥٧ المقر العام للقوات البريطانية في الجزيرة العربية كي يصبح في استطاعتها ان ترد على الغارات التي قد تشنها القوات اليمنية أو السعودية في أي مكان من الجزيرة .

ان القادة العسكريين البريطانيين أمناء على مذهب لورانس بخصوص المراقبة الجوية . لذلك أناط المسؤولون عن القيادة العامة للشرق الاوسط في قبرص ، أمر القيادة العليا لجميع القوات البريطانية البرية والجوية ، الموجودة بين البحر الاحمر والخليج العربي بسلاح الجو الملكي البريطاني في عدن ، ونائب الماريشال الجوي ل . ف : سنكلر الذي يتولى رئاسة هذ المقر الجديد ، يبسط سلطانه في مدينة عدن على القواعد البريطانية الجوية في عدن نفسها ، والبحرين ، والشارقة ، وعلى عدة أفواج من المشاة ، والقوات المنقولة جواً ، والقوات الوطنية التي يقودها ضباط بريطانيون في الصومال البريطاني وعدن . وتضم القوات الجوية اسراباً من المقاتلات النفاثة (فينوم) والقاصفات من طراز لنكولن ، وطائرات النقل . والطيران في هذه المناطق الصحراوية الصعبة المسالك ، مفضل على وسائل النقل كلها توفيراً للوقت وأسلم بسبب العقبات الطبيعية : وقد تدخل الطيران مرتين سنة ١٩٥٧ للقصف أولاً في محمية عدن بين شهري

كانون الثاني وشباط ، وفي سلطنة عمان بين شهري تموز وآب : واذا كانت المحمية الشرقية قد عاد اليها الأمن والاستقرار نسبياً منذ عدة سنوات ، فان المحمية الغربية لم تعرف السلام والاستقرار أبداً . وما ذلك إلا بسبب قربها من اليمن التي تعتبر هذه المحمية جزءاً لا يتجزأ من أراضيها القومية .

المقاطعات التسع

تشبه المحمية الغربية من الوجهة الطبيعية اليمن الى حد بعيد : وكذلك من حيث السكان ، ففي الجبال الهيأة المتوسطية هي الغالبة . وفي الساحل يقطن مزيج من الوطنيين والافريقيين . وفيما عدا بعض المناطق المحدودة تتألف المنطقة الساحلية من أراض شبه صحراوية مثل تهامة اليمنية : غير ان التلال والهضاب التي ترتفع شيئاً فشيئاً نحو القمم في العربية الخضراء تتلقى نسبة أكبر من الامطار ، ولذلك يقيم فيها الفلاحون ويزرعونها :

ومنذ ذهاب اليهود الى اسرائيل لم يعد في المحمية الغربية سوى اربعمائة الف نسمة ، كلهم مسلمون سنيون ، على المذهب الشافعي ، كسكان جنوب اليمن والمحمية الشرقية ، وهم في أكثريتهم حضر . اما البدو الرحل فيعيشون بصورة خاصة في الشمال والشرق عند الحدود الصحراوية للربع الخالي :

وقد حرصت السلطات البريطانية المستعمرة على التركيب الاجتماعي — السياسي للتنظيم القبلي الموروث عن تفكك الممالك الكبرى التي سبقت الاسلام ، وذلك بحجة احترام النزعات الاستقلالية المحلية .. هذا التركيب محتفظ بأهميته دائماً في نظر الاستعمار طالما انه يشكل حاجزاً في طريق توحيد اجزاء الجنوب العربي : وانجلترا مرتبطة بمعاهدة ثنائية مع كل

من الكيانات السياسية المعترف بها رسمياً ؛ واللائحة الرسمية في عدن تشير الى ان عددها ثمانية عشر ولكنها في الواقع أكثر عدداً .

ويبدو شبه مؤكد ان الاجزاء المتناثرة لا تعترف بأي عهد نحو أي من الزعماء المعترف بهم في عدن (معاهدة المشايخ) . غير ان السلطات البريطانية تتعمد تجاهل ذلك لتتحاشى تقسيماً أوسع .

والوحدات القبلية الداخلة في نطاق معاهدة الحماية ، كما ذكرها آخر تقرير لمكتب المستعمرات ، هي التالية :

الوحدة	العاصمة	
عبدلي	لحج	(سلطانها يبسط سيادته على عدة قبائل)
اميري	ضالع	
فضلي	شقرا	
يافع – التحتا	القرى	
حواشبي	مسيمير	
يافع – العليا	محجبه	
مسطح	القدمه	
ضوبي	ذي شورا	
مفلحي	الجبّه	
حضرمي	الشبر	
شعيب	عوابل	
قطيبي	الذمير	
علاوى	القشه	
عقربي	بير احمد	
عواذلي	لودر	

العوالقي – العليا السعيد

العوالقي– السفلى أهوار

بيهان بيهان قصب

ان كل هذه الكيانات تسمى « دولاً » وعلى الاصح سلطنة لحج وحدها يمكن ، مع التساهل ، اعتبارها تستحق هـذا الاسم .. وسلطان لحـج هو أول عاهـل في المحمية الغربية ، معترف به كمولى من الكثيرين من المشايخ الصغار . وكان اول زعيم وقع اتفاقاً ثنائياً مـع البريطانيين . كما ان علاقاته مع سلطان عدن البريطانية كانت حسنة على العموم ؛ وسلطنته هي في الواقع همزة الوصل لكل طرق التجـارة في الزاوية الغربية في الجنوب العربي . ورسوم المرور التي تستوفيها تؤمن لها عائدات مستقلة محترمة .

في نيسان سنة ١٩٥٢ أنزل السلطان فضل عبد الكريم عن العرش ، على أثر تصرفات استبدادية ، فلجـأ الى اليمن ، بينما اختار شيوخ القبائل ، حسب العادة ، أخاه علياً خلفاً له . وكشرط للاعتراف به ، فرضت الادارة البريطانية عليه توقيع « معاهدة تشاور » تضم بنـداً يجبره على قبول مشورة « مستشار » بريطاني ، في حكم سلطنته وادارتها .

في منطقة صعبة المسالك ، معرضة أحياناً الى غارات القبائل اليمنية أو المترددين في المحمية يدير شريف بيهان بلباقة زائدة شؤون القبائل الموكول اليه امرها . وفي هذه المنطقة بالذات القريبة من الحدود اليمنية غير المحددة بدأ واندل فيليبس تنقيباته الاولى عام ١٩٥٠ ، وفي تشرين الاول سنة ١٩٥٦ ظهرت عدة معلومات في الصحف العربية الصادرة في عدن وكلها تشير الى توقيع اتفاق بـين حسين شريف بيهان والسيد فيليبس ، من اجل استثمار بترول بيهان ، بالاتفاق مع شركة بريطانية (شركة الامتياز البترولية)

هذا ومن جهة اخرى يقاسي في محمية عدن الغربية ، الرؤساء المعترف بهم من قبل السلطات البريطانية صعوبات متفاوتة الدرجات في فرض سيطرتهم على قبائل متمردة احياناً . والناقمون ، والمغامرون والمعادون لبريطانيا كل هؤلاء يجدون لهم ، في اليمن دائماً ، عوناً وملجأ وأحياناً سلاحاً وذخائر وتشجيعاً على الثورة . اما القسم الواقع على الحدود الذي حدد عام عام ١٩٠٥ بين الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة وقرية « قطبة » اليمنية ، فهو هادىء على العموم . ولكنه لا يمثل سوى ثلث خط — حسب الخريطة البريطانيـــة — يتغرج كثيراً ، حسب اهواء الانجليز ، قبل ان يصل الى رمال الربع الخالي حيث يكسب استقامة وهمية مطلقة : على طول هذه الحدود الوهميـــة لا تنقطع الاسباب الداعية للاشتباكات ، لا سيما والناس هنا يعيشون وايديهم على الزناد ، ومع ذلك ، فالتقدم الاقتصادي ، عن طريق استصلاح الاراضي الزراعية ، يعيد السلام الى بعض المناطق المحظوظة كمنطقة « عبيان » : ومنطقة كانت فيما مضى بالغة الخصب ، مساحتها اربعون الف هكتار ، تمتد بين فضلى ، ويافع السفلى ، امكن استصلاحها للزراعة : تستخدم منذ سنوات مزارع تجربة لزراعة القطن والمنتوجات التجريبية الاخرى ، بما في ذلك تحسين الزراعات الحياتية التقليدية وتربية المواشي : ان مشروع « عبيان » هو مدعاة افتخار للسلطات البريطانية الى جانب مضاعفـــة الخدمات الطبية والصحية ، والتوسع السريع لنطاق التعليم : عن طريق المستوى المعيشي والصحي والثقافي ، الى جانب تنظيم اداري مختلف ، يحاول البريطانيون جهدهم خلق هوّة في المستوى بين سكان المحميات ، وسكان اليمن المستقلة : اما الهدف الظاهر والخفي الذي يتطلع اليـــه البريطانيون فهو ان يصبح شافعيو المحميات ، اكثر تطوراً وتقدماً وغنى ليشكلوا قطباً جاذباً يجـــذب شافعيي اليمن المغلوبين على امرهم الذين يشكلون اكثرية السكان ، الامر الذي يقضي على السيطرة الزيدية لأئمة

صنعاء ، في حال تحقيقه . ترى هل لحظ المسؤولون اليمنيون هذا الخط المداهم ؟ اميل الى الاعتقاد بأن تصرفاتهم تدل على ذلك .

حضرموت ، الواحدي ، مهره

ان القسم الاكثر اتساعاً في محمية عدن ، هو في الوقت نفسه اقل اقسامها سكاناً ونحن نجد في اغوار حضرموت والواحدي ومهره ، التي تشكل محمية عدن الشرقية ثلاثمائة وخمسين الف نسمة فقط وقد عرفت هذه المناطق الاكثر جفافاً في الماضي هجرة اوسع وأوفر . والحياة في المدن الداخلية البعيدة عن الساحل بقيت مدة طويلة غير ممكنة الا بفضل المواصلات المؤمنة ، عن طريق قوافل البدو المستمرة الحركة ذهاباً واياباً على نطاق واسع ، لنقل البخور والتوابل . وذلك لان حضرموت كانت فيما مضى مقاطعة زاهرة من العربية السعيدة ، تشرف من مدنها ذوات ناطحات السحاب الشامخة على اربح تجارة في العصور القديمة . اما اليوم فقد حل البترول مكان البخور ، والناقلات الضخمة تقوم مقام الجمال ، بينما تحولت الطرق التجارية الى منطقة اخرى من الجزيرة العربية الفريدة ، وحضرموت المنسية بالنسبة للاحساء والكويت ، لم يبق لها سوى مدنها المبنية بحجر الشطوط والطين مثل شيبام ، تريم ، موكلا ، القابعة في طيات الهضاب الكلسية وهي في الشفق المهجور تذكر ، بوزنات احمال البخور ، تحت جدرانها التعبة .

ان بقاء هذه المدن القديمة التي تنطق بفن بنائي هندسي متقدم ، في قلب صحار لا يستطيع احتمالها الا البدو وحدهم هو احد المميزات البارزة لمحمية عدن الشرقية . حضارة معمرة ، حضرية وبدوية ، وكذلك اتاح وجود مدن كبيرة مع طبقة بورجوازية تجارية ، وامراء اسياد مبدئياً على القبائل المجاورة ، انشاء تنظيم سياسي ، اداري اكثر

تقدماً وتعقيداً ساند فيه الحضريون اعداء النزعات القبلية التي تشل الحركة التجارية – ما عدا تجارة الاسلحة – الجهود البريطانية لفرض السلام على مختلف القبائل والعشائر . و. هـ. انغرامز ، الذي اصبح فيما بعد اول مستشار مقيم بريطاني في المحمية الشرقية ، استغل بذكاء نادر ، الوضع الراهن ليحصل عام ١٩٣٧ على هدنة مدتها ثلاث سنوات بين الفئات المتنازعة دائماً . وفيما بعد جـدّد سلم انغرامز ، بدون صعوبة ، لمدة عشر سنوات اخرى . وبفضل هذا الوضع الراهن ، كانت التقسيمات السياسية ابسط واقل عدداً في المحمية الشرقية ، لان السلطات البريطانية في عدن لم تعترف الا بالزعماء الاقوى . وتضم حضرموت دولتين : قايطي ، وكاثري ، الاولى هي سيدة الثانية . واما مهرا فتشكل سلطنة كشن ، وسوقطرة التي تقوم عاصمتها في حديبو (تاماريدا) . وتؤلف الواحدي سلطنتين اصغرهمـا ، بير علي ، وبلحاف وتشمل امارتين ساحليتين صغيرتين هما : ارقه وحورا .

الادارة غير المباشرة

تحتل سلطنة قايطي بعاصمتها مكلا ساحل حضرموت باسره وتمتد بعيداً في الداخل : واميرها كان عام ١٩٣٧ اول من وقع مع السلطات البريطانية (معاهدة تشاور) . واليوم جميع زعماء المحمية الشرقيـة واكثر زعماء المحمية الغربية ، مرتبطون مع بريطانيا بمعاهدات ثنائية مماثلة . وبموجب هذه المعاهدة ، تعهد الامراء العرب باستشارة المستشار البريطاني قبل اتخاذ اي اجراء فيما عدا تلك التي تتعلق بالدين الاسلامي والتقاليد المحلية ، او على الاصح تعهدوا بأن يحكموا بالعدل والحلم بالتعاون التام مع الحاكم .. ويقبلوا دون تحفظ رأيه في كـل الشؤون المتعلقة بازدهار وتطور البلاد . وقد اكملت هذه الاتفاقات الداخلية

معاهدات الحماية التي تضع شؤون السيادة الخارجية في يدي حاكم عدن البريطاني ، وتمنع على اي من الامراء ان يتصرف بحرية في شأن اي من اراضيه دون موافقة بريطانيا المسبقة على ذلك .

وفيما يختص بحضرموت ، اعترف ، الميثاق الانجليزي – القايطي – الكاثري الموقع في الثاني من آذار سنة ١٩٣٩ ، بأولوية سلطان قايطي ، وأعلن ان « دولتي قايطي والكاثري تشكلان مقاطعة واحدة هي حضرموت وهذه بدورها تتبع الامبراطورية البريطانية » . وعن طريق هذه الشبكة من العلاقات التي قامت على المعاهدات الثنائية عبر الانجليز الى تلك المنطقة بنفوذهم سراً ووطدوه . ودول حضرموت التي اعيد استقرارها ، في الوقت الحاضر هي اكثر دول محميات عدن تقدماً ، سياسياً واجتماعياً . وفيها يشرف المستشارون البريطانيون دون ان يتدخلوا مباشرة في شؤون السلطنات الداخلية على ادارة هذه الشؤون فيشيرون ويعرضون ويقدمون مساعدتهم . ووفقاً للقانون الذي أصدرته الحكومة البريطانية عام ١٩٣٧ ، بشأن ولادة محميات عدن ، احتفظت لنفسها بحق التشريع والادارة في كل انحاء المحميات . ولكن هذا الحق المعطى للتاج لم يُستخدم عملياً . وفيما عدا الشؤون الخارجية والدفاعية والمالية ، تنعم السلطنات باستقلال ذاتي حقيقي وجميع المجالس الحكومية والدوائر الوزارية والادارة الاقليمية والبلدية لا تعمل الا بالاشتراك مع أعضاء وطنيين . وهذا النظام المستعمل في حضرموت كان قد استوحي من المثل « الملتقي » الموضوع عام ١٩٣٩ على يدي هارولد انغرامز ، اما السلطنات الاخرى في المحمية الشرقية التي ما زالت في مستوى أدنى من حيث التطور السياسي فتميل الى تقليد تطور حضرموت والافادة من تجربتها . ومهرة وسوقطرة التي لم يوقع سلطانها على ميثاق التشاور الا عام ١٩٥٤ ، ما زالت في هذا النطاق متأخرة كثيراً :

سوقطرة المنسية

سوقطرة جزيرة المحيط الهندي الكبرى تُلقّب ايضاً « جزيرة دم التنين » ما زال اهلها الذين يجنون الصبر والبخور شبه عراة ، يتكلمون لغة غريبة ، ويزاولون عبادات قديمة في لباس اسلامي . وقد بقيت هذه الجزيرة في معزل عن كل نفوذ اجنبي وكل احتلال ، لصعوبة الاقتراب منها دائماً واستحالة ذلك أحياناً .

في أوائل القرن السادس عشر حط « البوكرك » رحاله فيها ليترك هناك قلعة صغيرة أثراً له . أما الانجليز الذين أرادوا ان يتخذوها محطة لهم على طريق الهند عام ١٨٣٠ ، فسرعان ما تخلوا عنها وتحولوا الى عدن : وذلك لأنها محاطة بصخور قاطعة مسننة لا يمكن الاقتراب منها طيلة ستة أو ثمانية أشهر في السنة . وفي عصر الطائرات والطائرات العمودية قد تُعيد بريطانيا الكرة لاستخدامها قاعدة لها . وفي هذه الحالة ترى هل تتمكن من تطوير حياة سكانها ؟؟ وسوقطرة تخضع لسلطان مستبد ، يجهل حتى عود الثقاب في عصر الصواريخ ، ويعيش سكانها من تربية المواشي وقليل من الزراعة وصيد الاسماك . ويغطس سكان السواحل أيضاً للبحث عن اللؤلؤ في بحر بخيل ، ويسكن القسم الاكبر من الأهلين في مغاور التلال الصخرية في الداخل ، بين الأشجار التي تعطي لآلىء من نوع آخر هي كتل البخور .

كانت جزيرة سوقطرة سابقاً تساوي ثقلها ذهباً ، أما اليوم وقد أصبحت الجزيرة احدى تلك المناطق الضائعة المتأخرة الى درجة لا يقبلها العقل في عالم مليء بالرحالين ، والعسكريين ، والمنقبين عن البترول . ومع ذلك تمركز فيها عام ١٩٥٤ مندوب بريطاني . ويبدو على الرغم من البؤس الظاهر والجهل والمرض ، ان مصيرها يزعج هؤلاء الذين

أخذوها على عاتقهم .ان سوقطرة من الوجهة الستراتيجية لا تقدم سوى افادة محدودة جداً للبريطانيين اذا ما بقوا في الصومال وعدن وتلك عن طريق مطار قضوب ، قرب حديبو الذي يمكن توسيعه وتحسينه(وحسب معلومات أعلنها مصدر حسن الاطلاع ، شهدت الجزيرة عـام ١٩٥٧ نشاطاً كبيراً . وكل شيء يدفعنا الى الاعتقاد انه يجري انشاء قاعدة جوية كبرى ، وربما كان ذلك تحسباً للطوارىء فيما لو اشتد النزاع البريطاني اليمني .) واقتصادياً لا نعلم فيما اذا كان المنقبون عن البترول قد بدأوا أعمالهم في هذه القلعة الطبيعية . وأغلب الظن ان الامتياز الذي منحته سلطات عدن البريطانية للتنقيب في المحمية كلها يشمل جزيرة سوقطرة .

التقدم الاقتصادي والاجتماعي

يظهر النفوذ البريطاني في المحمية واضحاً بصورة خاصة في الحقل الاقتصادي . وهناك يقوم الاقتصاد المعيشي التقليدي كـما هو معروف على الزراعة ، وتربية المواشي في الداخل ، وصيد الاسماك في الساحل . وقد سبق لي واشرت الى برنامج تطوير « عبيان » الذي اتاح جني تسعة عشر الف بالة في عام ١٩٥٢ ــ ١٩٥٣ ، واربعين الف بالة من القطن ذي التيلة الطويلة المأخوذ من الساكل المصري . وهناك مشروعات اخرى من النوع نفسه ولكنها اقل اهمية ، بُدىء بتنفيذها ايضاً . ان الاكثار من السدود الصغيرة وشبكات الري من شأنه ان يزيـد من المساحات المزروعة ، كما ان حسن اختيار البذار واتباع الوسائل الحديثة في الزراعة سيؤدي الى مضاعفة الانتاج في الهكتار . وفي حضرموت ، حيث الري مرتبط ارتباطاً شبه كلي بالآبار الارتوازية ، جرى تعميم استعمال المحركات على الآبار في كل البلاد : وقـد اتاحت خمسمائة

مضخة ديزل تعمل منذ سنة ١٩٥٤ ، زيادة الاراضي الزراعية المروية الى اربعة اضعاف . وتباع هذه المضخات بالتقسيط عن طريق الحكومات المحلية التي تستورد لها بحرية المحروقات اللازمة وفي صيون عاصمة الكاثري، في قلب وادي حضرموت ، يقوم معمل آلي لصيانة هـذه الاجهزة وتصليحهـا . وتموّل مشروعات الانماء الاقتصادي في محميات عدن المؤسسة البريطانية لتمويل المستعمرات ورفع مستواها وقد بدأ ذلك عقب المجاعة الفظيعة التي اصابت حضرموت بسبب جفاف طويل الامد عام ١٩٤٢ – ١٩٤٣ . وعلى الرغم من ان انجلترا آنذاك كانت في حالة حرب فإن الحكومة اقرّت مساعدات عاجلة لمكافحة المجاعة . وبعـد الحرب خصصت الاموال الممنوحة على العموم لتمويل مشروعات من شأنها ان تمنع البؤس والشقاء . ومن مجموع الاموال التي منحتها المؤسسة البريطانية بين سنة ١٩٤٦ – ١٩٥٣ وقدرها اربعمائة وسبعون الف جنيه استرليني ، ذهب ثلاثمائة وخمسة آلاف الى اعمال الري وتصليح السدود مما اتاح ان تنشأ شعبة للابحاث الزراعية وتوضع خطط للانعاش : وأهم تلك المشروعات مشروع عبيان .

حتى عام ١٩٥٥ وزعت المؤسسة البريطانية اكثر من خمسمائة الف جنيه استرليني في محميات عدن وأرصد ايضاً للفترة الواقعة بين عامي ١٩٥٥ – ١٩٦٠ مبلغ سبعمائة وسبعين الف جنيه . بالاضافـة الى المشروعات الاقتصادية الصرفة ، ساعدت هذه الاموال على انشاء المدارس والوحدات الصحية المتحركة والمستشفيات . والجدير بالذكر انه اصبح في المحمية سنة ١٩٥٥ مئة وسبع مدارس ابتدائية ، وخمس مدارس متوسطة ، ومدرسة ثانوية ، وخمس مستشفيات ، وسبع وستون وحدة صحية ، ومركزان للتدريب الصحي .

وما دمنا نتحدث عن الموارد الاقتصادية في حضرموت فيجب الا ننسى الهجرة التي تعتبر مورداً رئيسياً في هذه البلاد . منذ القرن السادس

لميلادي ، بعد تدهور تجارة البخور وانهيار سد مأرب وأهل حضرموت يهاجرون الى الهند واندونيسيا حيث اسسوا مستعمرات تجارية قوية . وهؤلاء هم الذين ادخلوا الاسلام الى العالم الملقي وخاصة الى جاوه وسومطرة . وقد سمحت بلادة السكان الاصليين لهم كما سمحت للصينيين ان يجمعوا ثروات طائلة بعد عمل متواصل . وابناء حضرموت لا ينسون مطلقاً وطنهم الام . وكثيرون منهم يعودون اليه بعد جمعهم الثروات الطائلة ، والآخرون يعيلون عائلاتهم في الوطن مما يرسلونه لها من المهجر . وقد قدرت قبل الحرب ، الاموال التي يرسلها هؤلاء المهاجرون الى حضرموت بستمائة الف استرلينية سنوياً . ولكن هذا الوضع له نتائج خطيرة تترتب عن كل هجرة اقتصادية . ويخشى ان يؤدي قطع المواصلات في الظروف القاهرة الى عواقب وخيمة كما حدث لدى احتلال الجيش الياباني لسنغافورة في الحرب العالمية الثانية . فقد كان ذلك احد الاسباب الرئيسية التي ادت الى المجاعة الكبرى في حضرموت خلال الحرب . وهناك نتيجة اخرى أعمق وأبعد أثراً هي التأثر الروحي الفكري المتبادل المختلف الدرجات الذي عرفت حضرموت من جرائه اختلاط الدم واللغات والعادات مما وجد في الجنوب العربي نفوذاً هندياً ملقياً يشده الى المحيط الهندي الاسلامي اكثر من عالم الجزيرة العربية .

اتحاد ، قومية وبترول

تحت تأثير البيئة في الحكام البريطانيين ، بعد ان بنى هؤلاء النظام الملقي لمواثيق التشاور ، اتجهوا نحو ايجاد نوع من الاتحاد بين محميات الجنوب العربي . وفي السابع من كانون الثاني سنة ١٩٥٤ اطلق حاكم عدن السير توم هيكنبوتام ، تصريحاً رسمياً تضمن تلك الرغبة . وعلى الرغم من المعارضة الشديدة من قبل اليمن وحليفاتها ، واصل

الحاكم البريطاني الجديد ، السير وليم لوس ، المعين في آب سنة ١٩٥٦، سيره في نفس المخطط السياسي الذي وضعه سلفه ، والذي كان قد دعا اليه المنظم الاكبر للمحميات ، السيد هارولد انغرامز . وفي آذار سنة ١٩٥٦ صدر في لندن تصريح رسمي آخر يعلن ان سياسة الحكومة البريطانية في المحمية ، كما في غيرها ، هي مساعدة جميع الاقطار التابعة لبريطانيا من اجل الوصول الى اقصى حد من الانماء الاقتصادي والتطور السياسي تسمح به ظروف هذه الاقطار . وحكومة صاحبة الجلالة تشاطر الرأي القائل بأن دول المحمية اذا جمعت اجزاؤها الصغيرة الضئيلة السكان ، القليلة الموارد في كيان مشترك امكنها ان تصل الى ارفع درجة من التطور الاقتصادي والسياسي ؛ وبسبب ذلك يقتضي عليها ان تسعى لاقامة نوع من الاتحاد فيما بينها ، للمساعدة والمساندة المتبادلة ، وتقوية الاقتصاد الداخلي والتنظيم الاجتماعي .

اننا نلاحظ جيداً العبارات المبهمة الواردة في هذا التصريح السياسي الرسمي الذي يبدو كأنه يتراجع عما سبق اعلانه عام ١٩٥٤ ، ذاك الذي ادى الى اثارة نقمة اليمن وجامعة الدول العربية والى سلسلة من الاشتباكات العنيفة على حدود المحمية وفي داخلها . ان تصريح عام ١٩٥٤ قد دعا صراحة لاقامة اتحادين ، واحد لكل من المحميتين الشرقية والغربية ومن ثم دمجهما فيما بعد في اتحاد للجنوب العربي ، ان نجاح التجربة الملقية كان حاضراً بالطبع في اذهان الذين صاغوا التصريح ، ولكن الغارات اليمنية ، والاختلافات التي نشأت بين زعماء المحمية الغربية وتوقيع ميثاق جدة ، والتقارب السوفياتي اليمني ، كل ذلك دفع البريطانيين الى التراجع . واثناء اضطرابات سنة ١٩٥٧ ، اصر الامام احمد على فضح نوايا بريطانيا في الحصول على اراض بترولية ؛ وبفضل التطورات اللاحقة ، وتزايد النفوذين السوفياتي والاميركي في المنطقة بصورة خاصة وجدت السياسة البريطانية نفسها معرضة للامتحان

والتجربة امام العداء الاستعماري الذي الف بين العرب والبلدان الشيوعية، وكتلة باندونغ والولايات المتحدة الاميركية .

ونجاح المخطط البريطاني للاتحاد اصبح من جراء ذلك موضع شك عام ١٩٥٨ ، وهو بالطبع اسهل تحقيقاً في المحمية الشرقية (حضرموت) منه في المحمية الغربية . ولكن تحقيقه مرتبط ، على كل حال ، بقدرة البريطانيين على سبق اليمن في مضمار التقـــدم الاقتصادي والاجتماعي ، وعلى امكانية التوفيق بين سكان المحميات انفسهم وليس بين زعمائهم فقط ، بسبب انتشار الدعاوة للافكار التومية . ولن نستطيع تقدير مدى التأثير العظيم الذي يتركه في بلدان متخلفة كهذه ، ادخال اجهزة الراديو اليها . وترى اليوم البدوي والأمي في المحميات ينتظر بفارغ الصبر مواعيد بث اذاعة صوت العرب الموجهة اليه . ومن القاهرة ، صوت العرب ينشر الرياح ، وسواه يحصد العواصف وقد صرح الشريف بيهان وهو من أنصار التضامن الوثيق مع بريطانيا ومن مؤيدي فكرة الاتحاد ، صرح قائلاً : هذا الاتحاد ضروري ، والثروات المخبأة في جوف ارضنا لا سيما بترول بيهان ، والمشروعات الزراعية الكبرى يجب أن تتيح لنا تحمل هذه المهمة . انني ارثي لراديو القاهرة الذي يحاول خداعنا في هذا المضمار . أما امام اليمن فلا يرى هذا الرأي . وبالنسبة له ، بترول بيهان هو بترول يمني ، وقد أعلن عزمه على متابعة الجهود من أجل تحرير القسم المحتل من اليمن الجنوبية ، بقوله : « لقد برزت قضية الاتحاد في الوقت الذى تجري فيه محاولات لاستخراج البترول من جوف الاراضي اليمنية » . وادخال شبوة ، المنطقة البترولية أيضاً ، في المحمية الشرقية ، لا يصونها من مطالب اليمنيين وغاراتهم . وفضلاً عن ذلك ، ما أن يكتشف البترول في منطقة ما حتى تثور الخواطر ؛ في حضرموت ، في بير ثمود الواقعة في منطقة مسالمة بعيدة نوعاً عن اليمن ، هاجم الاهالي الناقون المنقبين عن البترول هناك في شهر شباط

سنة ١٩٥٧ ، حيث تأكد وجود البترول في هذه المنطقة منذ سنة ١٩٥٤

وبترول بيهان وشبوه وبير ثمود هل هو موجود يا ترى بكميات صالحة للاستثمار التجاري ؟ من المؤكد ان البعد عن الشاطىء ، والعقبات الطبيعية الواجب تذليلها هما أهون بكثير من العقبات التي تثيرها المقاومة اليمنية . وسلسلة اخرى من العقبات ستبدأ في البروز عندما يصل منقبو الارامكو في سلسلة تنقيباتهم نحو الجنوب ، الى المناطق المتنازع على سيادتها في رمال الربع الخالي .

obeikandl.com